رحلة مصطفى محمود

لماذا اخترت الإسلام

إعداد

إيهاب كمال

دار الروضة

للدراسات الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الروضة

حائز على شهادات تقدير
من المعارض الدولية والعالمية
• عضو اتحاد الناشرين المصريين والعرب •
• عضو الاتحاد الإسلامي العالمي للدعوة والإعلام •

رقم الإيداع
٢٠١٧ / ١٧٣٥١

الترقيم الدولي :
978-977-458-169-8

النَّاشِرُ
دَارُ الرَّوضَة
لِلنَّشرِ وَالتَّوزِيعِ
2 درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
سوق الكتاب الجديد - الأزبكية تليفون : 25066884

المقدمة

عندما كنت طفلًا صغيرًا، كنت أتشوق لذلك الناي الحزين الذي يعلن بدأ برنامج "العلم والإيمان"، لأنني كنت أعلم أن الدكتور مصطفى محمود سيأخذني في رحلة جديدة معه لأكتشف العالم من راحة منزلي.

إلى أين يا ترى ستكون الرحلة هذه المرة؟ هل إلى غابات أفريقيا، حيث أتعلم عن القبائل البدائية، وطرق معيشتها؟ أم إلى الفضاء، وكواكبه المتناثرة؟ ربما حديث عن المريخ، أو الصعود على القمر؟ ولربما كان بعيدًا عن هذا كله، فكان حديثًا حول مسألة الموت، وماذا بعده؟ حقًا لا أبالي، فالشيء الوحيد الذي كنت متأكدًا منه، أنه شيء سيذهلني، وسيشعل عقلي فضولًا.

كبرت، وودعت رعونة المراهقة. ولكنني أيضًا استقبلت أسئلة ثقيلة: لماذا أنا هنا؟ لماذا نحن هنا؟ كيف وجدت؟، أبي وأمي والمدرسة والمسجد يقولون لي أن الله أوجدني، لأعبده. ولكن المشكلة في هذه الأسئلة أنه لا يصح فيها تلقين الإجابة. لا بد على كل أمرؤ أن يجد جوابها بنفسه.

كنت أفتش يومًا في مكتبة أبي القديمة، فوجدت كتابًا يدعى "أينشتاين والنسبية"، كان اسم المؤلف مألوفًا، ولكنني تفاجأت أن مقدم برنامج العلم والإيمان يكتب كتبًا أيضًا! فبدأت أقرأ، وأقرأ، مستمتعًا بنفس الأسلوب السلس المسلي الذي اعتدته في برنامج العلم والإيمان، ولحسن حظي، لم يكن كتاب "أينشتاين والنسبية" الكتاب الوحيد في مكتبة أبي للدكتور مصطفى محمود، فأنهلت على كل ما وصلت إليه يداي قراءةً وتدبرًا، ولم أجد إرهاقًا أو أي شيء من هذا القبيل، لأن كتب الدكتور تسلي أكثر من قراءة الروايات! ولقد كانت تلك الكتب آخر ما أقرأ قبل نومي، ولربما كان هذا خطأ فادحًا، لأنك لن تستقبل النوم بعد أن يشعل الدكتور رأسك أسئلةً.

اليوم أنا في بداية عقدي الثالث، ومجموع حصيلتي من كتبه، قرابة العشرين كتابًا،

ولكن ذلك مازال بعيدًا عن شمول مؤلفاته كلها، فمؤلفاته تجاوزت الثمانين كتابًا. ومع ذلك أستطيع أن أجزم اليوم، أن العشرين كتابًا التي قرأتها، كونتني. فأزال من صدري كل الشكوك كتاب "حوار مع صديقي الملحد"، وأنار دربي في رحلة البحث عن الحقيقية، رحلة الدكتور الشخصية "رحلتي من الشك إلى الإيمان".

وفتح على فكري مدارك واسعة كتابه "علم نفس قرآني جديد"، حيث قدم نظرية علم نفس جديدة مبنية على الوحي القرآني، والتي هي بالنسبة لي نظرية أشمل وأدق من علم النفس الحالي، ولا أنسى كتاب "لغز الحياة"، والذي أمسك فيه الدكتور بيدي في جولة في نظريات الحياة والتطور والطبيعة. وغيرها كتب أخرى، لا يسعني ذكرها هنا.

لم يترك الدكتور مجالًا إلا كتب فيه، فله مؤلفات في الفلسفة، والعلوم، والدين، والسياسة، والمسرح والقصة والرواية! ومع اتساع دائرة مؤلفاته، وعمق مواضيعها، أستطاع الدكتور أن يقدمها كلها بأسلوب سهل شيق يناسب الجميع.

كم مرة أذكر أنني تلفظت بالشهادة عندما أنهيت أحد كتبه، لأنني وقتها شعرت أنني أسلمت الآن! فقبل كل هذا لم أكن سوى وارث للإسلام. والاقتناع بالإسلام شيء آخر تمامًا.

الاقتناع بالإسلام يعني رحلة من التفكير والبحث بأسلوب منطقي بعيد عن كل الأهواء والافتراضات. وهذا دون يد تساعدك أو ترشدك أمر شبه مستحيل. والحمد لله أن الدكتور دون رحلته وشكوكه وأسئلته، فبذلك اختصر على الناس الكثير. وكان يدًا ترشدك إذا ما ضللت الطريق.

"أنا حقابل ربنا بشوية كلام؟!". هكذا قال عندما كان يتحدث في أحد اللقاءات التلفزيونية، فلقد وصف قرابة التسعين كتابًا بـ "شوية كلام"! ولهذا لم يتوقف إنتاج الدكتور على هذه الأمور، فقام بإنشاء مسجد في القاهرة، وأسماه باسم أبيه: "محمود". وألحق بالمسجد ثلاث مراكز طبية، وأربع مراصد فلكية، ومتحفًا للجيولوجيا!

قبل سبع سنوات، ذهبت روحه الطيبة إلى لقاء ربها. ولكنها لم ترضى أن تترك هـذه الدنيا قبل أن تترك شيئًا عظيمًا من نورها. الدكتور مصطفى محمود أدرك أهمية الإعـلام في نشر الوعي الذي يؤدي بدوره إلى نهضة الشعوب، فقام باستخدام كل الوسائل التي وصل إليها، لنشر رسالته.

أتأمل كثيرًا في الفضل الكبير للدكتور علـيّ مـع أننـي لم ألقـه يومًـا، وأتخيـل عـدد الأشخاص غيري الذين تأثروا به. إنه لأمر جميل حقًا أن تترك هذه الدنيا دون أن تغادرها! أن تضع بصمة تساهم، ولو قليلًا، في تغيير هذا العالم.

وفي هذه السلسلة سنحاول استلهام أفكار وكلـمات هـذا الكاتـب والمفكـر الكبـير ونحاول أيضاً أن نستخرج أفكار ورؤى رائعة من بين سطوره ولقاءاتـه في برنامجـه الرائـع العلم والإيمان.

***

الصمت

نحن نتبادل الكلمات والحروف والعبارات كوسائل للتعبير عن المعاني وكأدوات لكشف كوامن النفوس ونتصور أن الحروف يمكن أن تقوم بذاتها كبدائل للمشاعر ويمكن أن تدل بصدق على ذواتنا ومكنوناتنا.

والحقيقة أن الحروف تحجب ولا تكشف .. وتضلل ولاتدلل .. وتشوّه ولا توضح .. وهي أدوات التباس أكثر منها أدوات تحديد ..

يقول الحبيب لحبيبته : أحبك

وهو يقصد بذلك التعبير عن حالة وجدانية خاصة جداً وذاتية وجديدة عليه فلا يجد إلا كلمة هي صك مستهلك تهرأ من كثرة الاستعمال .. كلمة أصبحت ماركة مسجلة لأردأ أنواع البضائع .. كلمة حولّتها الأغاني المبتذلة والهزليات المسرحية إلى بالوعة أو في أحسن الأحوال إلى منشفة لتجفيف ما ينضح من العرق في حالات فسيولوجية عديدة ومتناقضة ، ولكنه لا يجد غيرها .

فإذا حاول أن يستخرج من قاموس الحروف ومعجم العبارات كلمات أخرى فانه لا يجد إلا المجاز والاستعارة والبيان والبديع وضرب الأمثلة .. فيقول لحبيبته أنه يحبها كما تحب الوردة ندى الفجر أو كما تحب ظلمة الليل شعاع الشمس أو كما تحب صغار العصافير أعشاشها .. وهو كلام فارغ آخر يترجم الحالة الخاصة الفريدة إلى سلسلة من البدائل المزورة ويحول الشعور البكر إلى ثرثرة جوفاء لا تدل على شيْء..

ولو أنه صمت لكان صمته أبلغ..

وللصمت المُفعَم بالشعور حُكم أقوى من حكم الكلمات ..

وله إشعاع وله قدرته الخاصة على الفعل والتأثير ..

والمحب الصامت يستطيع أن ينقل لغته وحبه إلى الآخر إذا كان الآخر على نفس

المستوى من رهافة الحس وإذا كان هو الآخر قادراً على السمع بلا أذن والكلام بلا نطق .

والإنسان معجزة المخلوقات..

وهو ليس آلة كاتبة .. ولا اسطوانة ناطقة .

وهو أكثر من مجرد آليات جسدية ..

هو عقل وروح ووجدان ..

وذاته مستودع قوة وأسرار إلهية .

وهو يستطيع أن يتكلم بلا نطق .. ويسمع بلا أذن . ويرى بلا عيون.

ونحن نرى في الحلم بلا عيون ونسمع بلا آذان ونجري بلا سيقان..

وقد رأى المبصرون بعيون طه حسين ما لم يروا بعيونهم ..

وفي رؤى أبى العلاء وأشعاره ما لا تتطاول إليه عيون المبصرين أصحاب العيون ..

والحقائق العالية تقصر دون بلوغها الحروف والعيون والأذان ..

و إنما خُلِقَت الحروف للتعبير عن أشتات العالم المادي وجزئياته وهي مجرد رموز ومصطلحات ونظائر لما نرى حولنا من شجر وحصى ورمل وبحر وتلال ووديان وجبال .

أما عالمنا الداخلي . وسماواتنا الداخلية .. وسرائرنا العميقة .. فتقصر دونها الحروف ولا تصورها كلمات ..

وكلما كان شعورنا حميماً وكلما كان حبنا متغلغلاً في شغاف القلب مالكاً لناصية السر ساكناً لُب الفؤاد كلما عجز اللسان وتضعضعت الكلمات وتقطعت العبارات ..

والحقائق الإلهية أكثر استحالة على الألفاظ .

هنا الألفاظ تتحول إلى جلاميد صخر لا تصلح على الإطلاق لوصف ذات الله المطلقة .

والألفاظ في رحاب الله .. أستار وحجب ..والكلمة حائل .. والعبارة عائق والاصطلاح عقبة .

هو هذا عالم السر والطلسم الذي يتم الاتصال فيه بالروح بدون مواصلات الماد وبدون أداة الكلمة ..

وهذا هو عالم المطلقات الذي لا تحلق إليه كلمات و لا تسمو إليه ألفاظ . ومعدن الحب الشفيف العالي هو من نفس معدن هذه المطلقات ولغته من لغتها .. فهو من خصائص الروح ... وهو في صميمه انعطاف روح قبل أن يكون انعطاف جسد وحين تبلغ المشاعر إلى تلك المنطقة يسكت اللسان وتصبح اللغة صمتاً .

ولهذا أحب الصمت وأوثر الصمت كلما شعرت بهذا القرب الحميم نحو إنسان .. ذلك القرب الذي يتسلسل إلى الشغاف ويسكن الحنايا دونما صخب ودونما ضجيج ودونما اضطراب .

فهنا لا وجود للانفعال المبتذل الذي تتكلم عنه الأغاني .

ولا وجود للأوجاع والبكائيات ولا مكان لبلاهة قيس وأشعاره

ولو أني استعرت تلك الكلمات القديمة لأعبر بها عن ذلك القرب الحميم لكنت ثرثاراً أجوف أتكلم عن رجل آخر غيري ..

فهنا شعور جديد تماماً وخاص جداً وذاتي ..

هنا حضور مؤنس يشيع الدفء والبهجة الهادئة والإحساس بالمعية التي تطرد الوحشة والوحدة ..

هنا كل شيء هامس خافت بلا صوت وبلا صورة وبلا لفظ وبلا غرض وبلا مأرب ..

فما أبلغ الصمت وما أقدره على التعبير .

«رأيت الله»

محاولة للقراءة في فكر التصوف

- لماذا لا نصدق حينما نقرأ في القرآن أنّ الله هو المُعلم؟؟

بدأ كتاب رأيت الله بقصة الأسد سلطان الذي اغتال مدربه محمد الحلو، ثم أضرب بعدها عن الطعام، وكانت آخر كلمة قالها محمد الحلو وهو يموت: "أوصيكم .. ما حدش يقتل سلطان.." سلطان الذي انتابته حالة من الجنون وأخذ يأكل من لحم يده حتى مات.. هل سمع الأسد كلمة مدربه .. وهل فهمها؟ يبدو أننا لا نفهم الحيوان ولا نعلم عنه شيئاً..

كتب د. مصطفى محمود في بداية كتاب رأيت الله:

الكثير منا يذكر قصة الأسد الذي اغتال مدربه (محمد الحلو) وقتله غدراً في أحد عروض السيرك بالقاهرة، وما نشرته الجرائد بعد ذلك من انتحار الأسد في قفصه بحديقة الحيوان واضعاً نهاية عجيبة لفاجعة مثيرة من فواجع هذا الزمن.

والقصة بدأت أمام جمهور غفير من المشاهدين في السيرك حينما استدار محمد الحلو ليتلقى تصفيق النظارة بعد نمرة ناجحة مع الأسد (سلطان) ..

وفي لحظة خاطفة قفز الأسد على كتفه من الخلف وأنشب مخالبه وأسنانه في ظهره!.. وسقط المدرّب على الأرض ينزف دماً ومن فوقه الأسد الهائج.. واندفع الجمهور والحرّاس يحملون الكراسي.

وهجم ابن الحلو على الأسد بقضيب من حديد وتمكن أن يخلص أباه ولكن بعد فوات الأوان.

ومات الأب في المستشفى بعد ذلك بأيام أما الأسد سلطان فقد انطوى على نفسه في حالة اكتئاب ورفض الطعام.

وقرر مدير السيرك نقله إلى حديقة الحيوان باعتباره أسداً شرساً لا يصلح للتدريب، وفي حديقة الحيوان استمر سلطان على إضرابه عن الطعام فقدموا لـه أنثى لتسري عنه فضربها في قسوة وطردها وعاود انطواءه رعزلته واكتئابه!

وأخيراً انتابته حالة جنون، فراح يعضّ جسده وهـوى عـلى ذيلـه بأسنانه فقصمه نصفين!!!.. ثم راح يعضّ ذراعه، الذراع نفسها التي اغتال بها مدرّبه، وراح يأكل منها في وحشية، وظل يأكل من لحمها حتى نزف ومات واضعاً بذلك خاتمة لقصة نـدم مـن نـوع فريد..

ندم حيوان أعجم وملك نبيل من ملوك الغاب عرف معنى الوفاء وأصاب منه حظاً لا يصيبه بعض الآدميون.

أسدٌ قاتل أكل يديه الآثمتين درسٌ بليغ يعطيه حيوان للممسوخ البشرية.

كانت آخر كلمة قالها محمد الحلو وهو يموت: أوصيكم .. ما حدش يقتل سلطان.. وصية أمانة ما حدش يقتله.

هل سمع الأسد كلمة مدربه .. وهل فهمها؟

يبدو أننا لا نفهم الحيوان ولا نعلم عنه شيئاً

إنّ القطة وهي تسرق قطعة السمك من مائدة سيدها عينها تبرق بإحساس الخطيئة ، وإذا لمحها تراجعت وإذا ضربها طأطأت رأسها في خجل واعتراف بالذنب!! ولكن عندما يضع أمامها الطعام تأكله بأمان أمامه !!!

هل تفهم القانون؟؟؟

هل علمها أحد الوصايا العشر؟؟؟

وخلية النحل التي تحارب لآخر نحلة وتموت لآخر فرد في حربها مع الزنابير..من علّمها الشجاعة والفداء..؟

وأفراد النحل الشغالة حينما تختار من بين يرقات الشغالة يرقة وتحولها إلى ملكة بالغذاء الملكي وتنصبها حاكمة عندما تموت الملكة..

من أين عرفت دستور الحكم؟؟؟

و "الفقمة" المهندسة التي تبني السدود وحشرات "الترميت" التي تبني بيوتاً مكيفة الهواء تجعل فيها ثقوباً سفلية تدخل الهواء البارد وثقوبا علوية يخرج منها الهواء الساخن..

من علمها قوانين الحمل الهوائي!!!؟؟

والبعوضة التي تجعل لبيضها الذي تضعه في المستنقعات أكياساً للطفو يطفو بها على سطح الماء..

من علّمها قوانين أرشميدس في الطفو!؟

ونبات الصبار، وهو ليس بالحيوان وليس له إدراك الحيوان..

من علّمه اختزان الماء في أوراقه المكتنزة الحمية ليواجه بها جفاف الصحارى وُشحّ المطر!؟

والأشجار الصحراوية التي تجعل لبذورها أجنحة تطير بها أميالاً بعيدة بحثاً عن فرص مواتية للإنبات في وهاد رملية .

والحشرة قاذفة القنابل التي تصنع غازات حارقة ثم تطلقها على أعدائها للإرهاب.

والديدان التي تتلون بلون البيئة للتنكر والتخفي.

والزنبور الذي يغرس إبرته في المركز العصبي للحشرة الضحيّة فيخدرها ثم يشلها تماماً ثم يحملها إلى عشه ويضع عليها بيضة واحدة حتى إذا فقست خرج الفقس فوجد أكلة طازجة جاهزة!!

من أين تعلّم ذلك الزنبور الجراحة وتشريح الجهاز العصبي!!؟؟

من علّم تلك الحشرات الحكمة والعلم والطب والأخلاق والسياسة!!؟؟

لماذا لا نصدق حينما نقرأ في القرآن أنّ الله هو المُعلم؟؟

من أين جاءت تلك المخلوقات العجماء بعلمها ودستورها إن لم يكن من خالقها!!؟؟

وما هي الغريزة..!!؟

أليست هي كلمة أخرى للعلم المغروس منذ الميلاد!!؟؟

العلم الذي غرسه الغارس الخالق!!

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون..

لماذا ندهش حينما نقرأ أن الحيوانات أم أمثالنا ستحشر يوم القيامة؟؟

وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون (واذا الوحوش حشرت).

إلا يدلّ سلوك ذلك الأسد الذي انتحر على أننا أمام نفس راقية تفهم وتشعر وتحس وتؤمن بالجزاء والعقاب والمسؤولية؟؟!!.. نفس لها ضمير يتألّم للظلم والجور والعدوان؟؟؟

ويسرد د. مصطفى محمود في الكتاب مقتطفات من كتابات النفري:

يقول الله لعبده

يا عبد أنت لا تملك إلا ما ملّكتك

لا تملك نفسك فأنا خالقها

ولا تملك جسدك فأنا سوّيته

أنت بي تقوم وبكلمتي جئت إلى الدنيا

يا عبد قل لا إله إلا الله ثم استقم فلا إله إلا انا ولا وجود حق إلا لي وكل ما سواي مني من صنع يدي

يا عبد كل شيء لي فلا تنازعني ما لي

أردد كل شيء إلي أثمره بيدي و أزيد فيه بكرمي.. أسلِم إليّ كل شيء تسلم من كل شيء

أعلم أن عبدي الأمين هو الذي ردّ سواي اليّ

يا عبد خلقتك لك كل شيء فكيف أرضاك لشيء

إنما نهيتك عن التعلق غيرة عليك

يا عبد لا أرضاك لشيء حتى ولو كان الجنة ولو رضيتها أنت

فقد خلقتك لي لتكون عندي .. عند لا عند وحيث لا حيث

خلقتك على صورتي واحدا فردا سميعا بصيرا متكلما وجعلتك لتجليات اسمائي ومحلاً لعنايتي

أنت منظري لا ستور مسدلة بيني وبينك

أنت جليسي لا حدود بيني وبينك

يا عبد ليس بيني وبينك بين

أنت اقرب الي من نفسك

أنا اقرب اليك من نطقك

فانظر إلي فإني أحب أن أنظر إليك

ثم يروي الكتاب مواقف ومخاطبات محمد بن عبد الجبار بن حسن النِفَري الملقب بالنفري -من كبار الصوفية- ورحلته للوصول إلى الذات الإلهية.

أنهى الدكتور مصطفى محمود مقدمة كتابه بقوله "إن هذا الكتاب كُتب لخاصة الخاصة الذين يتأملون ويعيشون مع الحرف ويصاحبون المعاني وأنه ليس للعوام الذين يقرأونه للمتعة العابرة ".

بعض العبارات المأثورة من الكتاب:

- "لا يخلق القلب شريراً بالجبلة ولا خيراً بالجبلة .. وإنما يُخلق قابلاً للتخلق بأي من الإثنين .. وهو متقلب بينكم بحكم اختيارة وهواه"

- "بيتك مني في الآخرة كقلبك مني في الدنيا."

- "يا عبد إذا رأيتني في الضدين رؤية واحدة فقد اصطفيتك لنفسي."

- "يقول الله لعبده :

لا تيأس مني ....لو جئت إلي بأقوالك كلها سيئات كان عفوي أعظم

ولا تجتريء علي ...لو جئت إلي بأقوالك كلها حسنات لكانت حجتي ألزم"

- "كل عابر معه جهته إليها يتوجه وكل سائر معه طريقه ولن يدعوك سائر إلا إلى مقامه ومقيمه الذي أقامه فيه"

- "ياعبد اصحبني في سرك أصحبك في علانيتك ..اصحبني في وحدتك أصحبك في جمعك أصحبني في خلوتك أصحبك في ملائك"

- "منتهي المعرفة أن يدرك العارف حيرته وجهله أمام الذات الإلهيه وكنهها وماهيتها ويكتشف أن العجز عن إدراكها هو عين إدراكها وأن الجهل هنا هو منتهي المعرفة للذي ليس كمثله شيء"

***

الزمن

إن دقات ساعة الحائط تقدم لك زمناً

مزيفاً..ابحث عن زمنك الحقيقي في

دقات قلبك .. و نبض إحساسك ..

كل شيء في الدنيا يجري و يلهث ..

الشمس تشرق و تغرب ..

و النجوم تدور في أفلاكها ..

و الأرض تدور حول نفسها ..

و الرياح تهب في الجهات الأربع ..

و السيول تنهمر من أعلى الجبال ..

و الينابيع تتفجر من باطن الأرض ..

و النبات و الحيوان و الإنسان تعيش كلها في حركة دائبة ..

و ذرات الجماد تهرول في مداراتها ..

و ظاهرات الطبيعة كلها عبارة عن حركة .. الكهرباء حركة .. و الصوت حركة و الضوء حركة .. و الحرارة حركة .. و الكون كله يتمدد مثل فقاعة من الصابون و ينفجر في كل قطر من الفضاء ..

المادة في حالة انتشار وذبذبة وحركة ولهذا يقول اينشتين أن لها بعدا رابعا غير الأبعاد الثلاثة المعروفة

.. أو الزمن الملتصق بالمكان ويسميه الزمكان .

المادة مثل حيوان له طول و عرض و سمك و عمر .. و العمر يدخل في تركيبها .. كما يدخل في تركيب الحيوان .. الزمن إحدى الفتلات التي يتألف منها نسيج المادة ..

و هو أيضاً إحدى الفتلات التي يتألف منها نسيج الكائن الحي .

و لكن ما الزمن ؟

هل هو دقات ساعة الجامعة .. و النتيجة المعلقة بالحائط و التقويم الفلكي بالفصول و الأيام ..

إننا ما زلنا نذكر كلمات المراقب و نحن نؤدي الامتحان في آخر كل سنة ..

باقي على الزمن نصف ساعة ..

نذكر الرجفة التي كنا نحس بها و نحن ننظر إلى ورقة الإجابة و إلى ورقة الأسئلة .. و إلى الساعة في يد المراقب .. و إلى شفتيه و هما تنطقان ..

باقي على الزمن نصف ساعة ..

كأنه ينطق حكماً بالإعدام .. أو حكماً بالإفراج ..

كأن النصف ساعة عند بعضنا قصيراً جداً .. أقصر من نصف دقيقة .. لأن ورقة الإجابة مازالت بيضاء أمامه .. و لأنه ما زال يبحث .. و يهرش في رأسه .

و كان عند بعضنا الآخر طويلاً مملاً .. أطول من نصف اليوم .. لأنه قد انتهى من الإجابة .

كانت الساعة في يد المراقب تشير إلى زمن واحد .. و لكن كلاً منا له زمن خاص به..

كأن معيار الدقائق عند كل منا يختلف عن الآخر .

و هذا هو مفتاح اللغز ..

إن الزمن ليس شيئاً منعزلاً عنا مثل الشجرة و المحبرة و الكتاب .. ليس زمبلكاً تحتويه ساعة اليد .. و لكنه شيء يلابسنا .

لكل منا زمن خاص به .

عواطفنا و اهتماماتنا هي الساعة الحقيقية التي تضبط الزمن و تطيله أو تقصره .

أفراحنا تجعل ساعاتنا لحظات .

و آلامنا تجعل لحظاتنا طويلة مريرة ثقيلة مثل السنين و أطول .

إحساسنا بالسرعة و البطء ليس مصدره ساعة الحائط و لكن مصدره الحقيقي الشعور في داخلنا ..

إن ساعة الحائط تقدم لنا زمناً مزيفاً .. و مثلها التقويم الفلكي الذي يقسم حياتنا إلى أيام و شهور و فصول .

و التاريخ الذي يقسم أعمارنا إلى ماض و حاضر و مستقبل .. لأن حياتنا غير قابلة للقسمة .. و لأن الزمن في داخلنا غير قابل للقسمة أيضاً ..

إن حياتنا لحظة طويلة مستمرة يصاحبها إحساس مستمر بالحضور و نحن نتعرف على الماضي من خلال الحاضر .. فحينما نعيش في إحساس بالتذكر نسميه ماضياً .. و حينما نعيش في إحساس بالتوقع نسميه مستقبلاً .. و لكن كل هذه الإحساسات هي حاضر .

و الفواصل بين الماضي و الحاضر و المستقبل فواصل وهمية لأن اللحظات الثلاث تتداخل بعضها في بعض كما يتداخل الليل و النهار عن الأفق ..

و الذي يقوم بتعيين اللحظة في الشعور هو الانتباه .

الانتباه هو الذي يضع خطاً تحت بعض مشاعرنا و إحساساتنا فيخيل لنا أننا وقفنا لحظة و الحقيقة أنه لا وقوف أبداً .. و إنما نحن نعيش في حالة تدفق داخلي مستمر أبداً و دائماً .

و الزمن الخارجي .. زمن الساعات و المنبهات زمن كاذب خداع لأنه يساوي بـ
اللحظات و يجعلها مجرد أرقام علي مينا ..

الساعة واحدة .. الساعة اتنين .. الساعة تلاتة .. مجرد حركة من العقرب ..
انتقال بضعة سنتيميترات على المينا .. إنه ليس زماناً و لكنه أوضاع مختلفة في المكان .. أما
الزمن الحقيقي فهو في داخلنا .. و هو اضطراب دائم لا تتساوى فيه لحظة بأخرى .. لحظ
صغيرة .. و لحظة كبيرة .. و لحظة تافهة ..

و هو غير قابل للتكرار .. لأن كل لحظة تحتوي على الماضي كله و معه علاوة مر
الحاضر .. و في كل لحظة تضاف علاوة جديدة من التجربة و الحياة فلا تعود الحياة قابلـ
لأي تكرار .. و إنما هي الرؤية ..

بينما يحتاج الذي يشاهدنا من الخارج أن يرى حركات ذراعنا بعينه و يتبعها و يحللها
بعقله ليقول أننا نحرك ذراعنا إلى فوق ..

و معرفتنا نحن أرقى من معرفته لأننا نعاين الحقيقة مباشرة .

و بهذه المعرفة اكتشفنا الزمن .. زمننا الحقيقي .

و لكننا لا نعيش حياتنا كلها في الزمن الحقيقي لأننا لا نعيش في نفوسنا كل الوقت
.. و إنما نعيش في مجتمع .. نخرج و نختلط بالناس و نتبادل المنفعة و نتعامل و نتكلم و
نأخذ و نعطي ..

و لهذا لا نجد مفراً من الخضوع للزمن الآخر .. زمن الساعات .. فنتقيد بالمواعيد
و نرتبط بالأمكنة .

و نبحث عن الأشياء المشتركة بيننا لنتفاهم .. و في أثناء بحثنا عن الأشياء المشتركة
تضيع منا الأشياء الأصلية .

العرف و التقاليد و الأفكار الجاهزة تطمس الأشياء المبتكرة فينا و تطمس الذات
العميقة التي تحتوي على سرنا و حقيقتنا ..

و نمضي في زحام الناس و قد لبسنا لهم نفساً مستعارة من التقاليد و العادات لنعجبهم ..

و تتكون عندنا بمضي الزمن ذات اجتماعية تعيش بأفكار جاهزة و عادات وراثية و رغبات عامة لا شخصية ..

و هذه هي الذات سطحية ثرثارة تقضي وقتها في التعازي و التهاني و المجاملات و المعايدات و السخافات و تنفق حياتها في علاقات سطحية تشبه المواصلات المادية التي توصل من الباب إلى الباب و لا توصل من القلب إلى القلب .

و هذه الذات التافهة هي غير الذات العميقة التي نغوص إليها في ساعات وحدتنا و نكتشف فيها أنفسنا و نتعرف على وجوهنا الحقيقية ..

إنها ذات جامدة مثل الجسد تحكمها الغرائز و الضرورات الاجتماعية ..

و هي تشبه المرحاض النفساني نفرز فيه كسلنا و ضيقنا و مللنا و نقتل فيه وقتنا بانشغالات رخيصة تافهة مثل قزقزة اللب و لعب الطاولة .. و نحن نتأرجح في حياتنا بين هذه الذات السطحية و بين الذات العميقة .. نهبط مرة و نعلو مرة .. نعيش في زمن الساعات لفترة طويلة من يومنا في وظائف و أعمال آلية روتينية .. و نعيش في لحظات قليلة متألقة في داخلنا في زمننا الحقيقي الجياش فنهتز بالنشوة و نشرق بالسعادة و نرتجف بالقلق و نمتلئ بالفضول و اللذة و نعرف نفوسنا على حقيقتها و بكارتها ..

و نحن نكتشف هذه النفوس البكر في مغامرات قليلة ..

نكتشفها لأول مرة في مغامرة الحب حينما نعثر على المرأة التي تهز وجودنا .. و تخترقنا و تخترق عادتنا و تفكيرنا و حياتنا و تقلبها رأساً على عقب .. فتبدو كأنها حياة جديدة عجيبة ..

و نكتشفها لثاني مرة في مغامرة الفن .. في لحظة الإلهام التي ينفتح فيها شعورنا على إدراك جديد و تصوير جديد للدنيا .. فنكتب أو نغني أو نرسم أو نقول شعراً ..

و نكتشفها لثالث مرة في مغامرة التأمل و في الشعور العميق بالتدين .. في لحظة الجلاء الفكري و الصوفي التي نضع فيها على حقيقة جديدة فينا أو في الناس حولنا أو في الدنيا ..

***

احترام الجسد

مأساة الإنسان أنه لا يوجد تواز بين نفسه و جسمه ، فالحادثة التي تقطع ساقه لا تقطع رغبته في الجري ، و الجراحة التي تستأصل غدته التناسلية لا تستأصل رغبته الجنسية .. و حينما يضعف بصره بالشيخوخة لا تضعف رغبته في الرؤية ، و عندما يضعف بدنه لا تموت شهوته .. و إنما العكس .. تسقط الأسنان و تزداد الرغبة في المضغ .. و تبدأ المهزلة .

و من لم يؤدب شبابه لن يستطيع أن يؤدب شيخوخته . و من لم يتمرس على كبح نفسه صبيا لن يقدر على ذلك كهلا .. و سوف تتحول لذته فتصبح عين مهانته إذا طال به الأجل .. و لهذا نرى الله يطيل آجال بعض المسرفين ليكونوا مهزلة عصورهم ، و ليصبحوا حكاية و نكتة تتندر بها الأجيال للاعتبار

.. حينما يتحول الفجار و الفساق و العتاة فيصبح الواحد منهم طفلا يتبول على نفسه و كسيحا يحبو و معوقا يفأفئ و يتهته ، و تسقط أسنانه التي سبق أن نبتت بالألم فينخرها السوس لتقع مرة أخرى بالألم ، و تعود أطرافه التي درجت على مشاية فتدرج على عكازين و يتحول الوجيه الذي كان مقصودا من الكل إلى عالة و شيئا ثقيلا و كومة من القمامة يتهرب منها الكل .. ثم لا يعود يزوره أحد .. ثم يموت فلا يشيعه مخلوق .. و لا تبكيه عين .. و لا تفتقده أذن .. و لا يذكره إنسان .. و كأنه دابة نفقت في حفرة .. فذلك هو التنكيس .. الذي ذكره القرآن .

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس:٦٨).

و السر في هذه المأساة .. أن النفس لا تشيخ و لا تهرم .. و لا تجري عليها طوارئ الزمان التي تجري على الجسد .. فهي من جوهر آخر غير مادة الجسد الكثيفة المركبة التي يطرأ عليها التحلل و الفساد .

فالسائق مايزال محتفظا بجميع لياقاته و سيظل شابا على الدوام و إن كانت العربة الشيفروليه الفاخرة قد صدأت آلاتها و أصابها التلف و عجزت عن الحركة .. و لم تعد

للسائق حيلة سوى أن يسحبها .. و تلك هي حادثة الشيخوخة .. نفس مازالت بكامل رغباتها و شهواتها .. و لكن لا حيلة لها مع جسد مشلول لم يعد يطاوعها .. لا حيلة لها سوى أن تسحبه و تجره على كرسي متحرك .

يقول أهل الله في شطحاتهم الصوفية الجميلة : إزالة التعلقات بعد فناء الآلات من المحالات .

فهم قد فهموا شيئا أكثر من مجرد أن الأجسام آلات لتنفيذ رغبات النفس ، بل هي أشبه بالسلالم يمكن أن يستخدمها صاحبها في الصعود أو في الهبوط .. فالمعدة عضو أكل و لكنها أيضا عضو صيام إذا تسلقت عليها .. و بالمثل الجهاز التناسلي عضو جماع ، و لكنه أيضا عضو عفة إذا حكمته .. بل إنه لا معنى للعفة بدون وجود نزوع شهواني للأعضاء تقابله بضبط إرادي من ناحية عقلك .

و تلك هي الفرصة التي أسموها .. إزالة التعلقات .

و سوف تضيع هذه الفرصة بالشيخوخة و انتهاء الأجل .. فلا أمل في إزالة التعلقات بعد فناء الآلات فذلك من المحالات .

و بذلك فهموا علاقة النفس بالجسد فهما جدليا .. فالنفس تؤدب الجسد ، و لكن الجسد أيضا يؤدب النفس .. و عملية الردع عملية متبادلة بين الإثنين .

الفرامل المادية مطلوبة لتربية الفرامل السلوكية و العكس صحيح .. و الأجل محدود .. يمكن أن يكون عملية إنفاق و تبديد .. أو عملية بناء و تشييد .. و بناء الشخصية النفسية و تعديلها و الارتقاء بها أو الانحطاط بها محتاج إلى الأسمنت الجسدي و الخرسانة المسلحة من الخلايا .. الروح محتاجة إلى الطين .. و الطين محتاج للروح .

و النمو النفسي و الروحي و التقدم المعنوي و التطهر الخلقي محتاج لهيكل مادي يعرج عليه صعدا .

و بهذا المعنى ينظر الصوفيون إلى الجسد بتقديس و احترام – و لا يحتقرونه – فهو

عندهم محراب النفس .

فالنور في النهاية يخرج من سلك متوهج .

و نور الشمس يخرج من اندماج ذرات الهيدروجين .

و نور الغاز يخرج من احتراق الزيت .

و نور فضائلنا يخرج من احتراق أجسادنا .

فالجسم قنديل يمكن أن يشع فضيلة .

و النظر إلى الجسد باعتباره نجس و خطيئة نظرة غير إسلامية بل هو أمر مناف للإسلام .. فالإسلام شمولي و جدلي ينظر إلى الإنسان باعتباره جسد و نفس و روح معا .. بل إن الإنسان هو تفاعل الثلاثة معا في وقت واحد .. و جسد الإنسان يمكن أن يكون هو عين روحه في لحظة .. كما أن روحه يمكن أن تكون عين جسده في لحظة أخرى و المسألة تتوقف على النفس هل هي صاعدة على سلم الهيكل أو هابطة عليه .

و الجسد عند الصوفية هو مجرد رسم مطلسم للروح و رمز رامز لأسرارها .. و هو معراجها الذي تصعد عليه للحضرة الإلهية .

و في حوار شعري رقيق بين الروح و الجسد ، يقول الصوفي أبو العزايم على لسان الروح مخاطبا الجسد :

أيا رسم من سفل تصاغ و ترتقي

فبين بحال أو صريح كلام

فيجيبه جسده قائلا :

لولاي ما جاهدت في الله مخلصا

و لولاي ما شرفت بالإكرام

فلولا ظلام الليل لم يعرف الضيا

و هو كلام دقيق و عميق ؛ فلولا المرض لم تعرف الصحة و لولا السواد لم يعرف البياض . و كل شيء لا يجلوه إلا نقيضه و بأضدادها تعرف الأشياء .

و الجسم و الروح كاللوح و القلم و كالمرآة و الوجه و كالشمس و نورها .

و في أسرار الروح لا ينتهي الكلام

***

من أنت ؟

من أنت.. حينما تتردد لحظة بين الخير و الشر.. من تكون..؟! أتكون الإنسان الخير أم الشرير أم ما بينهما..؟! أم تكون مجرد احتمال للفعل الذي لم يحدث بعد..؟! إن النفس لا تظهر منزلتها و لا تبدو حقيقتها إلا لحظة أن تستقر على اختيار، و تمضي فيه باقتناع و عمد و إصرار، و تتمادى فيه و تخلد إليه و تستريح و تجد ذاتها. و لهذا لا تؤخذ على الإنسان أفعال الطفولة، و لا ما يفعله الإنسان عن مرض أو عن جنون أو عن إكراه... و إنما تبدأ النفس تكون محل محاسبة منذ رشدها، لأن بلوغها الرشد يبدأ معه ظهور المرتكزات و المحاور التي ستنمو عليها الشخصية الثابتة. و اختيارات الإنسان في خواتيم حياته هي أكثر ما يدل عليه، لأنه مع بلوغ الإنسان مرحلة الخواتيم يكون قد تم ترشح و تبلور جميع عناصر شخصيته، و تكون قد انتهت ذبذبتها إلى استقرار، و تكون بوصلة الإرادة قد أشارت إلى الطابع السائد لهذه الشخصية. و لهذا يقول أجدادنا.. العبرة بالخواتيم.. و ما يموت عليه العبد من أحوال، و أعمال و ما يشغله في أيامه الأخيرة هو ما سوف يبعث عليه.. تماما كما ينام النائم فيحلم بما استقر في باله من شواغل لحظة أن رقد لينام. و لهذا أيضا لا تؤخذ النفس بما فعلته و ندمت عليه و رجعت عنه، و لا تؤخذ بما تورطت فيه ثم أنكرته و استنكرته، فإن الرجوع عن الفعل ينفي عن الفعل أصالته و جوهريته و يدرجه مع العوارض العارضة التي لا ثبات لها. و قد أعطى الله الإنسان مساحة كبيرة هائلة من المنازل و المراتب.. يختار منها علوا و سفلا ما يشاء.. أعطاه معراجا عجيبا يتحرك فيه صاعدا هابطا بلا حدود.. ففي الطرف الصاعد من هذا المعراج تلطف و ترق الطبائع، و تصفو المشارب و الأخلاق حتى تضاهي الأخلاق الإلهية في طرفها الأعلى (و ذلك هو الجانب الروحي من تكوينه) و في الطرف الهابط تكثف و تغلظ الرغبات و الشهوات، و تتدنى الغرائز حتى تضاهي الحيوان في بهيميته، ثم الجماد في جموده و آليته و قصوره الذاتي.. ثم الشيطان في ظلمته و سلبيته (و ذلك هو الجانب الجسدي الطيني من التكوين الإنساني). و بين معراج الروح صعودا و منازل الجسد و الطين هبوطا، تتذبذب النفس

منذ ولادتها، فتتسامى من هنا و تتردى هناك بين أفعال السمو و أفعال الانحطاط، ثم تستقر على شاكلتها و حقيقتها. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ (الإسراء:٨٤) و متى يبلغ الإنسان هذه المشاكلة و المضاهاة بين حقيقته و فعله فإنه يستقر و يتمادى، و يمضي في اقتناع و إصرار على خيره أو شره حتى يبلغ نهاية أجله. و معنى هذا أن النفس الإنسانية أو ﴿الأنا﴾.. هي شيء غير الجسد.. و هي ليست شيئا معلوما بل هي سر و حقيقة مكنونة لا يجلوها إلا الابتلاء، و الاختبار بالمغريات. و ما الجسد و الروح إلا الكون الفسيح الذي تتحرك فيه تلك النفس علواً و هبوطاً بحثاً عن المنزلة التي تشاكلها و تضاهيها و البرج الذي يناسب سكناها فتسكنه.. فمنا من يسكن برج النار (الشهوات) و هو مازال في الدنيا، فلا يبرح هذا البرج حتى المات، فتلك هي النفس التي تشاكل النار في سرها و هي التي سبق عليها القول و العلم بأنها من أهل النار. و ذلك علم سابق عن النفوس لا يتاح إلا لله وحده، لأنه وحده الذي يعلم السر و أخفى، فهو بحكم علمه التام المحيط يعلم أن هذه الحقيقة المكنونة في الغيب التي اسمها فلان، و التي مازالت سرا مستترا لم يكشفه الابتلاء و الاختبار بعد، و التي لم تولد بعد و لم تنزل في الأرحام.. يعلم ربنا تبارك و تعالى بعلمه المحكم المحيط أن تلك النفس لن تقر و لن تستريح و لن تختار إلا كل ما هو ناري شهواني سلبي عدمي.. يعلم عنها ذلك و هي مازالت حقيقة مكنونة لا حيلة لها في العدم. و هذا العلم الرباني ليس علم إلزام و لا علم قهر، بل هو علم حصر و إحاطة، فالله بهذا العلم لا يجبر نفسا على شر، و لا ينهى نفساً عن خير، فهو يعلم حقائق هذه الأنفس على ماهي عليه دون تدخل. فإذا جاء ميقات الخلق (و جميع هذه الأنفس تطلب من الله أن يخلقها و يرحمها بإيجادها و هي مازالت حقائق سالبة في العدم) أعطى الله تلك النفس اليد و القدم و اللسان لتضر و تنفع، و أعطاها ذلك الكون الفسيح الذي اسمه الروح و الجسد لتمرح فيه صاعدة هابطة تختار من منازله ما يشاكلها لتسكن فيه.. فإذا سكنت و استقرت، و تسجلت أعمالها قبضها الله إليه يوم البعث و الحساب المعلوم.. حيث تقرأ كل نفس كتابها، و تعلم منزلتها فلا يعود لأحد العذر في أن يحتج بعد ذلك حينما يضعه الله في مستقر الجنة أو مستقر النار الأبدية. و قد أعذر الله و أنذر الجميع من قبل ذلك بالرسل و الكتب و

الآيات، و أقام عليهم الحجة بما وهب لهم من عقل و ضمير و بصيرة و حواس تميز الضار من النافع و الخبيث من الطيب. و لهذا حينما تطالب النفوس المجرمة في النار أن تعطى فرصة أخرى، و أن ترد إلى الدنيا لتعمل الصالحات، و حينما يدعي البعض أن تعذيب تلك النفوس أبديا على ذنوب مؤقتة ارتكبتها في الزمن المحدود هو أمر ظالم. حينئذ يجيب ربنا متحدثا عن هؤلاء المجرمين قائلا: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (الأنعام:٢٨) و في هذا الرد البليغ إشارة إلى أن إجرام تلك الأنفس لم يكن ذنباً موقوتاً في الزمن.. بل لأنهم ليعاودون هذا الجرم في كل زمن و مهما عاود الله خلقهم.. لأن ذلك الإجرام حقيقة مكنونة، و ليس عرضاً محدوداً بالزمان و المكان.. و لهذا كان عقابه الأبد، و ليس العذاب الموقوت. و نقول أيضا: إن هناك عدالة عميقة كامنة في هذا المصير.. ناراً أبدية أم جنة.. إن كل نفس بينها و بين ذلك المصير النهائي مشاكلة تامة، و مضاهاة و ائتلاف في الحقائق.. فالحقائق النارية تسكن النار و الحقائق النورانية تسكن الجنة.. فلا قسوة هناك و لا وحشية، و إنما وضع لكل شيئ في مكانه. و السر الآخر الذي ينكشف لنا أن البيئة لا يمكن أن تصنع من إنسان صالح (نفسه صالحة بالحقيقة) إنساناً مجرماً و لا العكس، و أن الكلام على أن مظالم المجتمع جعلت فلاناً لصاً، هذا الكلام لا يصدق دينياً و لا واقعياً. فالمجتمع يضع للجريمة إطارها فقط و لكن لا ينشئ جريمة في إنسان غير مجرم.. بمعنى أن لص هذا الزمان تعطيه إمكانيات العصر العلمية وسائل إلكترونية و أشعة ليزر ليفتح بها الخزائن، بينما نفس اللص منذ عشرين سنة لم يكن يجد إلا طفاشة.. كما أن قاتل اليوم يمكن أن يستخدم بندقية مزودة بتلسكوب (كما فعل قاتل كنيدي) بينما هو في أيام قريش لا يجد إلا سيفاً، ثم قبل ذلك بعدة قرون لا يجد إلا عصاً، ثم قبل ذلك على أيام قابيل و هابيل لا يجد إلا الحجارة. إن المجتمع و العصر و الظروف تصنع للجريمة شكلها، و لكنها لا تنشئ مجرماً من عدم، و لا تصنع إنساناً صالحاً من نفس لا صلاح فيها. و بالمثل لا يستطيع الأبوان بحسن تربيتهما أن يقلبا الحقائق فيخلقا من ابنهما المجرم ابناً صالحاً و لا العكس. و نجد في سورة الكهف حكاية عن غلام مجرم كافر، أبواه مؤمنان. ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ (الكهف:٨) و أكثر

الأنبياء كانوا من آباء كفرة، و استجابت أكثر الأقوام لهؤلاء الأنبياء و لم يستجب الآباء. من الذي يستطيع أن يقلب حقائق الأنفس و يغيرها؟ لا أحد سوى الله وحده. و الله لا يفعل ذلك إلا إذا طلبت النفس ذاتها أن تتغير و ابتهلت من أجل ذلك، لأنه واثقنا جميعا على الحرية التامة و على أنه لا إكراه في الدين.. و أن من شاء أن يكفر فليكفر، و من شاء أن يؤمن فليؤمن.. و أنه لن يقهر نفساً على غير هواها.. و أنه لن يغير من نفس إلا إذا بادرت بالتغير و طلبت التغير. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١) و تلك هي التزكية. ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ (النور:٢١).

وعلى الإنسان أن يبدأ بتزكية نفسه و تطهيرها. ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٩/ ١٠) ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ (فاطر:١٨) و لا سبيل إلى تطهير النفس و تزكيتها إلا بإتقان العبادة و التزام الطاعات، و إطالة السجود و فعل الصالحات. و بحكم رتبة العبودية يصبح الإنسان مستحقاً للمدد من ربه، فيمده الله بنوره و يهيئ له أسباب الخروج من ظلمته. و ذلك هو سلوك الطريق عند الصالحين من عباد الله، بالتخلية (تخلية النفس من الصفات المذمومة)، ثم التحلية (تحلية القلب بالذكر و الفضائل) و التعلق و التخلق و التحقق. و التعلق عندهم هو التعلق بالله و ترك التعلق بما سواه. و التخلق هو محاولة التحلي بأسمائه الحسنى، الرحيم و الكريم و الودود و الرءوف و الحليم و الصبور و الشكور.. قولا و فعلا. و التحقق هو أن تصل إلى أقصى درجات الصفاء و اللطف و المشاكلة، فتصبح نورانيا في طباعك أو تكاد. و لا سبيل إلى صعود هذا المعراج إلا بالعبادة و الطاعة و العمل الصالح، و التزام المنهج القرآني و السلوك على قدم محمد العبد الكامل عليه صلوات الله و سلامه. و الذي يعلق على هذا الكلام فيقول: قولك عن النفس أنها ((السر)) هو كلام أغمضت فيه، و ألغزت و حجبت و ما كشفت. أقول له إن نفساً فيها القابلية للحركة على جميع تلك المعارج صعوداً و هبوطاً، و فيها القابلية أن تكون ربانية أو شيطانية أو حيوانية أو جمادية. نفس بهذه الإمكانيات هي ((السر الأعظم)) ذاته. و من ادعى أنه أدرك السر الأعظم؟!! إن هي إلا أصابع تشير. و

شار إليه لا يعلمه إلا الله. و نحن جميعاً لا نعلم. (بقليل من التصرف) المصدر : كتاب (القرآن كائن حي)) للدكتور مصطفى محمود.

****

الواقع الكذاب

ما نراه في الواقع ليس دائماً هو الحقيقة..

حتى ما نراه رأي العين و نلمسه لمس اليد..

فنحن نرى الشمس بأعيننا تدور كل يوم حول الأرض، و مع ذلك فالحقيقة أن العكس هو الصحيح، و الأرض هي التي تدور حول الشمس.

و نحن نرى القمر في السماء أكبر الكواكب حجما، مع أنه أصغرها حجما.

و نحن نلمس الحديد فنشعر بأنه صلب متدامج، مع أنه في الحقيقة عبارة عن ذرات منثورة في فراغ مخلخل، و بين الذرة و الذرة كما بين نجوم السماء بعدا.. و ما يخيل لنا باللمس أنه صلابة و تدامج هو في الحقيقة قوى الجذب المغناطيسي الكهربائي بين الذرة و الذرة.. نحن نلمس القوانين بأصابعنا و ليس الحديد.

و نحن ننظر إلى السماء على أنها فوق، و الأرض على أنها تحت، مع أنه لا يوجد فوق و لا تحت.. و السماء تحيط بالأرض من كل جوانبها.

و الهرم بالنسبة لنا شيء لا يمكن اختراقه، مع أنه بالنسبة للأشعة الكونية شفاف كلوح الزجاج، ترى من خلاله و تنفذ من خلاله.

و صقيع القطبين الذي نظن أنه غاية في البرودة هو بالنسبة لبرودة أعماق الفضاء جحيم ملتهب.

و في الحقائق الإنسانية تكذب علينا العين و اللسان و الأذن أكثر و أكثر.. فالقبلة التي تصورناها في البداية مشروع حب نكتشف في النهاية أنها كانت مشروع سرقة.

و جريمة القتل التي أحس الجميع بأنها ذروة الكراهية يكتشف الجميع أنها ذروة الحب.

و ما قد يبدو للزوج أنه خيانة من زوجته لفرط إحساسها بجمالها قد يكون الدافع حقيقي له هو إحساس الزوجة بقبحها و شعورها بالنقص، تحاول الخلاص منه ستدراج إعجاب الرجال، و الانتقال من خيانة إلى أخرى.

و ما تكتب عنه الجرائد بالإجماع على أنه بطولة قد يعلم البطل نفسه أنه كان انتحارا.

و في الحقائق الاجتماعية تتعقد الأمور أكثر، و يغرق الحق في شبكة من التزييف سترك فيها كل الإرادات، و يصبح الحكم على الأمور بظاهرها سذاجة لا حد لها.

و في الحقائق التاريخية يكتب المؤرخون في كل عصر و من ورائهم السلطة، و تكتب لامهم ما يريد الأقوياء أن يقولوا.

و ما أصعب الوصول إلى الحقيقة..

إن الوصول إلى المريخ أسهل من الوصول إلى حقيقة أكيدة عن حياة وردة تتفتح كل رم عند نافذتك.. بل إن الوصول إلى أبعد نجم في متاهات الفضاء أسهل من الوصول إلى حقيقة ما يهمس في قلب امرأة على بعد شبر منك.

بل إن عقولنا تزين علينا حتى عواطفنا نفسها، فنظن أن حب المجد يدفعنا و لحقيقة أنه الغرور و حب الذات.. و نظن أن العدالة هي التي تدفعنا إلى القسوة في حين ن الذي يدفعنا هو الحسد و الحقد.

من الذي يستطيع أن يقول.. لقد أدركت الحقيقة؟

من الذي يجرؤ أن يدعي أنه عرف نفسه؟

ليس من باب التواضع أن نقول.. الله أعلم.

و إنما هي الحقيقة الوحيدة الأكيدة في الدنيا.. إننا نجهل كل الجهلُ حتى ما يجري تحت أسماعنا و أبصارنا.

و برغم جهلنا يتعصب كل فريق لرأي.. و قد تصور كل واحد أنه امتلك الحق،

فراح ينصب المشانق و المحارق للآخرين.

و لو أدركنا جهلنا و قدرنا لانفتح باب الرحمة و الحب في قلوبنا، و لأصبحت الحي

على الأرض جديرة بأن نحياها.

متى نعرف أنا لا نعرف؟!

***

اللعبة

كل يوم نقرأ عن.. الإنسان الآلي.. المخ الأوتوماتيكي.. العقل الإلكتروني.. و نسمع عن اختراع عين رادار لحراسة الخزائن.. و ابتكار أذن لاسلكية لضبط اللصوص.. و رئة صناعية للمصابين بالشلل.. و كلية صناعية لمرضى البولينا.. و قلب بلاستيك لمرضى القلب..

هل معنى هذا أن العلم يستطيع أن يسوي لنا إنساناً يحس و يشعر و يمشي و يتكلم مثله مثلنا.. بمجرد تركيب بعض الوصلات الكهربائية و اللمبات و البطاريات الترانزستور.

إن رجل الشارع حينما يقرأ هذه الأخبار يضحك.. و يقول بسذاجته المألوفة.. بقى معقول يخلقوا بني آدم.. طيب و حاينفخوا فيه الروح منين..

و هي ليست ملاحظة ساذجة..

إن هذه الملاحظة هي الفارق الوحيد العميق بين الآلة.. و الإنسان..

إن أي اختراع من ساعة اليد إلى القنبلة الذرية إلى صاروخ القمر هو مجرد لعبة بزمبلك.

لعبة ليس فيها مخ.. ولا روح.. و لا إرادة.. لعبة لا تستطيع أن تريد لنفسها.. و إنما تتوقف على ما تريده أنت لها حينما تدير زمبلكها و تضبط عقاربها.

الآلة الكاتبة تكتب ما تمليه أنت عليها.. و لكنها لا تستطيع أن تؤلف لنفسها شيئاً.

و الآلة الحاسبة تطرح و تجمع و تقسم.. و لكنها لا تستطيع أن تتعب و تيأس و تصرخ و تحتج على سخافة الأرقام التي تجمعها و تطرحها.

و الرئة الصناعية تتنفس، و لكنها لا تستطيع أن تلهث بالخوف و لا باللهفة.

و القلب البلاستيك يدق.. و لكنه لا يستطيع أن يخفق بالحب و لا بالرغبة.

و الشيء الذي ينقص هذه الأشياء نسميه الروح.. فما هي الروح؟

إن لوح الخشب يسبح في الماء.. و سمك البحر يسبح هو الآخر في الماء.

و لكن لوح الخشب ليست له إرادة.. إن كل ما يفعله أنه يسلم نفسه للتيار يقذف به إلى اليمين و إلى اليسار و إلى الأمام و إلى الخلف.. و يسلم نفسه للقوانين الطبيعية فترفعه إلى فوق بحكم كثافته الخفيفة.. و يسلم نفسه إلى عوامل الفساد و التلف تأكل فيه حتى يذوب و يتفتت إلى تراب.

أما سمك البحر فإنه يتحرك على كيفه.. على مزاجه.. فيسبح ضد التيار.. و لا يسلم نفسه للقانون الطبيعي، و إنما يثور عليه فيسبح صاعداً ضد الجاذبية.. و يسبح هابطاً ضد قانون الكثافة.. و هو لا يسلم نفسه لعوامل التلف و الفساد، و إنما يتغذى و ينمو و يتكاثر و يهاجم كل عدو يفكر في قتله.

إن سمك البحر فيه روح..

دودة القطن.. و عود من أعواد المكرونة.. كلاهما يتلوى في يدك و كلاهما رخو دودي.. و لكنهما مفترقان فيما عدا هذا المظهر.. و مختلفان جداً.

عود المكرونة تجففه الشمس و تذيبه الرطوبة و يأكله النمل.. و هو يستسلم لكل هذه العوامل بلا حيلة..

أما دودة القطن فإنها تقاوم كل هذه العوامل بإرادة عنيدة فيها.. و هي تفعل ما هو أكثر من هذا.. إنها تأكل التوكسافين.. و تتعود عليه و تكتسب مناعة ضده.. و تغالب هذا السم الزعاف و تغلبه.. لأن فيها روحاً..

حبة من الحصى.. و حبة من الذرة.. قد تتشابهان.. و النحات يستطيع أن ينحت من الحجر بذرة لا يمكنك أن تفرقها من بذرة الذرة.. و لكن إذا زرعت الإثنين فإن كلا منهما سوف تختلف كثيراً عن الأخرى.

حبة الحصى سوف تغوص في الطين و تشدّها جاذبية الأرض.

و حبة الذرة سوف يخرج منها جنين ينمو إلى فوق كالمقذوف ثائراً على جاذبية الأرض و صاعداً بأوراقه الخضراء إلى الشمس..

إن حبة الذرة فيها روح..

ما هي الروح..

الروح ثورة على الضرورة و القوانين الآلية.. إنها حرية و ذاتية.. و كيان.. و شخصية.. و إرادة.

و نحن نقول إن الإنسان له روح، لأنه لا يمكن إدارته بزمبلك.. و لا شيء يديره سوى مزاجه و كيفه.. و حريته.. و هواه..

و العلم لن يستطيع أن يصنع إنساناً.. لأنه لا يصنع إلا الزمبلكات.. و لا يبتكر إلا الماكينات و الآلات التي يستغل فيها القوانين الطبيعية التي اكتشفها.

إنه يدور دائماً في نطاق الآلات و الموضوعات المعقولة المنطقية.

و الروح أولى صفاتها خرقها للقوانين و علوها عليها و ارتفاعها فوقها و فوق المنطق.. و فوق المعقول.. و لهذا فهي متجددة أبداً.. لا يمكن التنبؤ بمكنونها.

في الإمكان التنبؤ بكسوف الشمس.. و حركة القمر.. و لكن من المستحيل التنبؤ بالنوايا المكنونة في نفس بشرية.. لأنها لا تخضع لقانون سوى قانونها.. و هواها و مزاجها..

و في كلمة واحدة.. فيها روح.. فيها سر فوق متناول أي قوة..

الروح حرية.

إنها بدء مطلق لا سيطرة لأحد عليه..

الإنسان فيه روح.. لأن فيه حرية.. و هذه الحرية هي التي صنعت العلم بكل اختراعاته و ابتكاراته.. و سوف تصنع مزيداً من العلم كل يوم.. و لكن العلم لن يصنعها أبداً.

***

لماذا خلقنا الله؟

في كل لحظة منذ ميلاد الإنسان حتى موته.. منذ يقظته في أول ساعات الصباح حتى دخوله في الفراش لينام.. و هو يتعرض لامتحان تلو امتحان.

كل لحظة تطرح على الإنسان موقفا و تتطلب منه اختيارا بين بديلات.

و هو في كل اختيار يكشف عن نوعية نفسه و عن مرتبته و منزلته دون أن يدري.

شهوته تناديه ليشبعها.

قد تكون شهوة إلى طعام، أو شهوة إلى إمرأة، أو شهوة إلى سلطة، أو شهوة إلى جاه.

و إشباع أي شهوة يستدعي تأجيل الأخرى، و تكشف النفس عن منزلتها بما تفضله، و بما تعجل إليه من شهوات من أدنى السلم حيث الإنسان هو الحيوان الذي لا يشغله سوى شهوة بطنه أو عضوه التناسلي، إلى الطاغية الجبار الذي لا شاغل له سوى شهوة التسلط على الآخرين و سحقهم و استغلالهم.. يكشف لك اختيارك عن نوعك و منزلتك و رتبتك.

و يقول لك سلوكك.. من أنت.. بين هؤلاء الشهوانيين.. و أي نوع من الحيوان أنت.. فإذا رفضت هذه الشهوات جميعها و استجبت لنداء المنطق و الاعتدال.. فأنت من أهل النظر و العقل و أنت إنسان و لست حيواناً.

و لكن الإنسانية أيضا درجات و العقل درجات.

و أدنى درجات العقل هو العقل المادي البحت الذي لا يعترف إلا بالواقع المحدود الذي يراه و يعيشه، و ينكر تماما ما وراء هذا الواقع الملموس المحسوس.

و يكاد يكون هذا العقل عضوا ملحقا بالحيوان الذي حكينا عنه يعمل في خدمة شهواته، و ذلك بالتماس المبررات و اصطناع المنطق و الذرائع لاقتناص اللذات.

فإن احتكمت في سلوكك هذا العقل فأنت مجرد حيوان متطور تستخدم طلقـ المسدس بدلا من المخالب، و تتآمر بالعقول الإلكترونية بدلا من الانطلاق وراء غضب عشوائي غير محسوب.

و لكن النتيجة مازالت واحدة.. إنك مجرم.. و حياتك هي مخطط إجرامي.. مهمـ بدت في ظاهرها مهذبة معقولة و منطقية.

إنها أدنى درجات العقل و أخس منزلة من منازل العقلاء.

فإن ارتقيت درجة فأنت تستشعر بشيء وراء الواقع.

و لكن هذا الاستشعار لا يزيد عن شبهة و ظن.

و لكن هذه الشبهة و هذا الظن يؤديان بك إلى أن تكون أقل مادية، و أقل ظلما و أقل صلفا و أقل غرورا، و أقل اقتناعا بالمنطق المقفل و بالواقع الغليظ المحدود.

و بين حين و آخر سوف تظهر عليك بدوات و سوانح تضحية وكرم.

و سوف تعطيك لمسة الغيب بعض المواقف الشاعرية.

و سوف تتأرجح بين هذه المنازل على حسب ما في نفسك من خير.. و ما في عقلك من نور.

فإذا ارتقيت أكثر فإن الاستشعار الروحي للغيب و الإحساس بما وراء الواقع سوف يغلبان على عقلك المسجون في زنزانة الماديات، و سوف تنفتح لك نوافذ من البصيرة و الحكمة تضيء الظلمة التي تزيد عليك من غواشي الحس، و سوف يبدو كرم الخلق كأنه طبعك.

و لكن استشعار الغيب لم يرتفع بعد ليصبح يقينا.. و إنما هو مجرد ترجيح.

فإذا حدثك أحد عن وجود الله فأنت تميل إلى تصديقه.. و لكن ليس لدرجة أن تصلي و تصوم و تدين بالعبادة.

و غاية ما تبلغ إليه من حال.. أن تعتقد أن هناك قوة ما وراء الأشياء.. و أنك تخشى هذه القوة.

و لكن ما عدا ذلك غير واضح، و اهتمامك بالدنيا يغطي على هذا الإحساس.. و أنت تمضي في حياتك تحاول أن تحقق أقصى النفع و لكنك تتحرى إلا تؤذي أحدا.

فإن ارتقيت أكثر فإن الاستشعار الروحي يتضح أكثر و غواشي الحس تنحسر عنك أكثر و أكثر، و يخالجك اليقين بأنك لست وحدك.. و بأنك لم تكن قط وحدك.. و إنما كان الله دائما معك و أنت تسمي هذه القوة لأول مرة باسمها الديني.. الله.. و تصفها بما وصفتها به الكتب السماوية من أسماء حسنى.. و تسند إليها العناية و الخلق و الوحي.

و تتفاوت المراقي في هذه الرتبة الشريفة من المؤمن العادي الذي يصلي و يصوم و يتحرى الخير، و لكن نفسه تغالبه إلى السقوط في الدنيا بين حين و آخر.. إلى المؤمن صاحب الإيمان الرفيع الذي يعيش في شهود و حضور و امتثال للذات الإلهية على الدوام فيعبد الله كأنه يراه.

و منزلتك في كل درجة من هذه الحالات يشهد عليها سلوكك.. فإذا كنت من أهل هذا الإيمان الرفيع فلابد أن تكون من أهل الإحسان.. تتقن كل عمل يوكل إليك دون نظر إلى مكافأة.. و تعامل أعداءك بالتسامح و النصح، و تجاهد الباطل بيدك و قلبك و لسانك و لا تخشى في الحق لومة لائم، و تزجر شهواتك و هي مازالت همسا في الخاطر و قبل أن تنمو إلى دوافع و أعمال.

و لا حقيقة لحال إلا إذا شهد عليه عمل، و لهذا يقلبك الله بين المواقف بين لحظة و أخرى من لحظة تصحو إلى لحظة تنام، و كل لحظة تضعك في موقف.

و كل موقف يتطلب منك اختيارا بين بديلات، و لا يعفيك من الامتحان إلا تختار.. لأن عدم الاختيار هو في ذاته نوع من الاختيار.. و معناه أنك ارتضيت لنفسك ما اختارته لك الظروف أو ما اختاره أبوك، أو ما اختارته شلة أصحابك الذين أسلمت

نفسك لهم.

و معنى هذا أن الحياة تعريك في كل لحظة، و تكشف حقيقتك و تنزع عنك قشرتك لتخرج مكنونك و مكتومك.

و المكر الإلهي هنا هو أن يضعك في موقف بعد موقف، و مشكلة بعد مشكلة.. و كل مشكلة تتطلب حلا.. و كل حل يتطلب اختيارا.. و كل اختيار يكشف عن حقيقتك رغما عنك مهما حاولت الاستخفاء.

و بقدر ما تمتد حياتك يوما بعد يوم.. بقدر ما تتمزق عن وجهك الأقنعة.. و يظهر و يفتضح أمرك و ينتهك سرك.

و الله يعلم حقيقتك و سرك من البداية.. و لكنك أنت لا تعلم و لا تريد أن تعلم.. لأنك مدع.. و كل منا مدع..

كل منا يتصور أنه رجل طيب و أنه مستحق لكل خير، حتى الجبارون الذين شنقوا و سجنوا، و عذبوا شعوبهم تصوروا أنهم مصلحون.

كل منا جاء إلى الحياة و معه دعوى عريضة مزعومة بأنه رجل صالح و طيب.

و لهذا اقتضى عدل الله أن يطلعنا على حقائقنا، حتى لا تقوم أعذار حينما يبدأ تصنيف الناس في الآخرة حسب درجاتهم.. و حتى يكون التصنيف على حسب الحقائق، و ليس على حسب المزاعم و الدعاوى.

و لهذا خلق الله الدنيا.

خلقها لتنكشف الحقائق على ما هي عليه.. و يعرف كل واحد نفسه و يعرف مقدار خيره و شره.. ثم ليعرف الأبرار خالقهم و ربهم، و ليذوقوا رحمته قبل لقائه.

ثم خلق الآخرة لتنكشف فيها حقائق الربوبية، و عالم الملكوت و الجبروت و الغيب.

و الله لا يخلق أي شيء إلا بالحق و للحق، لأنه سبحانه هو الحق.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ (٨٥) ﴾ [الحجر]

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) ﴾ [الدخان]

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [الدخان]

﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلا بِالْحَقِّ (٥) ﴾ [يونس]

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) ﴾ [النحل]

﴿ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى (٨) ﴾ [الروم]

﴿ وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (٢٢) ﴾ [الجاثية]

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ (٣) ﴾ [التغابن]

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٢) ﴾ [الملك]

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ (١٩١) ﴾ [آل عمران]

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

لا عبثية و لا عبث...

و ما نرى حولنا من تداول الأحوال على الناس من فقر إلى غنى، إلى مرض إلى عز إلى ذل، إلى حوادث مفاجئة إلى مصائب إلى كوارث إلى نجاح إلى فشل، ليست أمورا عبثية و لا مصادفات عشوائية، إنما هي ملابسات محكمة من تدبير المدبر الحكيم الذي يريد أن يفض مكنون النفوس و يخرج مكتومها.

﴿ وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) ﴾ [البقرة]

إننا جميعا شجعان حتى يدعو داعي الحرب، فيبدي كل واحد عذرا و يختلق كل

واحد ظروفا تمنعه و لا يثبت ساعة الضرب إلا القليل.

و لولا محنة القتال ما انكشفت النفوس على حقيقتها، و نحن جميعا كرماء حتى يدعو داعي البذل، فتنكمش الأيدي التي كانت ممدودة بدعوى السخاء، و لا تنبسط بالكرم إلا أكف معدودة.

و كما قال المتنبي:

لو لا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر و الإقدام قتّال

فالمشقة هي التي كشفت النفوس و فضحت دعاويها، و من هنا جاءت ضرورتها.

و ما كنا لنعرف صلابة الصلب لو لا اختباره.

و لهذا خلق الله الدنيا ليعرف الضعيف ضعفه، و ليعرف القوي قوته، و لتفتضح الدعاوى الكاذبة، و يتم العدل باقتناع كل نفس باستحقاقها، و بعدالة مصيرها النهائي في أعلى عليين أو أسفل سافلين.

خلق الله الدنيا ليحق الحق و يبطل الباطل.

و يصدق أيضا الكلام الذي يقول.. إن الله خلقنا ليعطينا.. فهو كلام يؤدي بنا إلى نفس المعنى.

فهل يصح عطاء إلا بمعرفة الاستحقاقات أو لا ليكون العطاء حقا.

إن معرفتنا لأنفسنا أيضا مطلوبة، لتكون قناعة كل واحد بعطائه قناعة حقيقية.. و لينتفي الإعتراض.

فمعرفة النفوس لحقائقها.. و معرفة الإنسان لخالقه.. هي الحكمة من خلق الدنيا.

﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٢) ﴾ [الملك]

و ما كانت هذه المعرفة لتتم إلا بالدم و الدموع، لأن النفوس ما كانت لتبوح بأسرارها و حقائقها إلا بالدم و الدموع.

و لأن كلا منا يخفي حقيقته وراء أقنعة غليظة من الشعارات و الأكاذيب، و يسدل على وجهه حجابا من الافتعال و التمثيل و بسمات النفاق و الملاطفة و المجاملة.

فكان لابد من حادث عنيف ليخترق هذه الحجب.

و الدنيا كانت ذلك الحادث.

لقد أخرجنا الله من العدم و كان كل منا حقيقة مكنونة، و أعطى كلا منا اليد و القدم ليضر و ينفع.

فأما الذين تحروا النفع و البر و الخير فهم أهله.. و مأواهم إلى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

و أما أهل الضرر و الأذى و الظلم فهم المبعدون عنه و عن رحمته.. و البعد عن الله نار.. لأن كل ما سوى الله نار..

و علامة أهل الله هي عرفانهم لربهم من قبل لقائه.. أن يعرفوه في هذه الدنيا.. و أن يشهدوا الدنيا دالة عليه.

و كلام القرآن بأن الله خلقنا لنعبده هو كلام يشتمل على كل هذه المعاني السالفة في باطنه.

و حينما تقول الآيات.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

فإنها تعني بداهة.

(و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعرفون).

لأنه لا عبادة بلا معرفة.

و المعنى أنه خلقنا لنعرفه، فإذا عرفناه عبدناه.. و إذا عبدناه تفاضلت عباداتنا، و تفاضل إيماننا و إنكارنا، و تفاضلت منازلنا.. و بالتالي تفاضلت استحقاقاتنا حسب ما نتعرض له من امتحانات في الدنيا.. و بالتالي تفاضل العطاء من المعطي.

و عطاء الله مبذول للكل.

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢) ﴾ [الإسراء]

فالله خلق ليعطي.. و كلنا مستحقون للعطاء بحكم رتبة العبودية، و كل هذه المعاني باطنة في كلمة ﴿ ليعبدون ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

أما الذي يقول: إن الله خلقنا لأنه خالق و لابد للخالق أن يخلق، فقد أوجب على الله أن يخلق هذا أو يخلق ذاك..

و لا حق لأحد أن يوجب على الله شيئا.

و لا يوجد قانون يوجب على الله شيئا.

لأنه لا توجد سلطة أو حكم خارج عن الله أصلا، و إنما الله يخلق ما يشاء.

و مشيئة الله لا تحدها قوانين.. لأنه سبحانه مصدر جميع القوانين.

و المشيئة مردودة إلى الله، و بالتالي ليست مسببة بحيث يمكن أن نسأل: و لماذا خلق الله هذا و لم يخلق ذاك؟

إن ((لماذا)) هنا لا مكان لها بتاتا و لا يصح أن توجه إليه سبحانه

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) ﴾ [الأنبياء]

و كنه المراد لا يعلمه أحد.

و السؤال يقال بوجه إجمال.

و مجال التأمل هو في الحكمة العامة للخلق و للدنيا.

أما السؤال تفصيلا عن خلق هذا و خلق ذاك، فهو أمر غيبي.. و هو في العمى لا يعلمه أحد.

يقول الصوفي ابن عربي: إن الله خلق هذا و خلق ذاك لأنهما سألاه في العدم أن يرحمهما بإيجادهما فأوجدهما.. و أن الله لا يأتي بأحد إلى الدنيا كرها.. و إنما كل ما جاء إلى الدنيا بطلبه.

و هو كلام غيبي.

و هو كلام يستتبع أنه كان لنا وجود في العدم.. و أن العدم غير معدوم.

و هو كلام يجرنا مرة أخرى إلى المعضلة التي أثرتها في كتابي ﴿ الوجود و العدم ﴾.

و لمن يريد أن يغوص وراء الأسرار أكثر أن يعود إلى الكتاب.

و حسب المؤمن الذي يريد أن يقف عند بر الأمان، و لا يلقي بنفسه في وادي العماء.. أن يقول:

آمنت بكلمات الله على مراد الله.

و ما خفي عني فالله به أعلم.

***

همسات من كتاب في الحب والحياة

أنت لا تحس بالفانلة علي جسمك إلا في اللحظة التي تلبسها .. وفي اللحظة التي تخلعها .. اما في الساعات الطويلة بين اللحظتين .. وهي علي جسمك فأنت لا تحس بها ..إنها علي جسمك .. تلامس جلدك وتلتف حول صدرك وظهرك وذراعيك ولكنك لا تحس بها ولا تشعر بوجودها ..

والمرأة بالمثل تحس بها وانت تشرع في الزواج منها في فترة التعارف والخطوبة وكتب الكتاب وشهر العسل .. فإذا لبستها تمامًا كالفالنة وأحاطت بصدرك وظهرك وذراعيك فقدت الشعور بوجودها .. وأصبحت مثل قطعة أثاث في البيت تدخل كل يوم لتجدها في مكانها مثل المنظر الذي تطل عليه من نافذتك يثيرك للمرة الأولي ثم يصبح عاديًا تنساه تمامًا ..

السر وراء هذا الشعور

يرجع إلي " كيمياء الأعصاب " إن أعصابنا مصنوعة بطريقة خاصه تحس باللحظات الإنتقال ولا تحس بالاستمرار ...

حينما تفتح الشباك فجأة تسمع دوشة الشارع تملأ أذنيك .. ثم تخف الدوشة شيئًا فشيئًا حينما يستمر صخبها في أذنك ...

حينما تركب الأسانسير تشعر به في لحظة تحركه ... وفي لحظة توقفه .. اما في الدقيقة الطويلة بين اللحظتين فأنت لا تشعر به لأن حركته تكون مستمرة ..

... حينما تعيش متمتعًا بصحة مستمرة لا تحس بهذه الصحة .. ولا تتذكرها إلا حينما تمرض !!

مانحبه في البيت والغرفة والفراش والمدفأة ، وما نخلده بالأشعار والاغاني وما نشتاق إليه في ليالي الغربة .. ليس هو البيت ولا الغرفة ولا الفراش ولا المدفأة ، وإنما

مشاعرنا وذكرياتنا التي نسجت نفسها حول هذه الجمادات وبعثت فيها نبض الحياة وجعلت منها مخلوقات تحب وتفتقد.

نحن حينما نفهم أنفسنا نصبح أقوي من كل ظروفنا لأننا نستطيع أن نشكل هذه الظروف ، ونتوافق معها ..

أنا لا أؤمن بأن الإنسان عبد للظروف وأنه مسير ولا اختيار له إطلاقًا ... ظروف الفقر والجهل والمرض والتربية السيئة لا تحتم الفشل في نظري .. بل هي أحيانًا تؤدي إلي النبوغ والخير والعبقرية .. لأن العامل الحاسم دائمًا الظرف الداخلي .. الظرف النفسي ..

وأخطر ظروف الجريمة ، هو المجرم نفسه .. وأخطر دوافع الجريمة هو المجرم نفسه .. هي اللحظة الحاسمة التي تصل فيها شخصيته لدرجة الغليان وتفور عناصرها لتفقده الصواب ..

هذه العملية الداخلية المستترة في نفوسنا .. النية .. والإحساس.. والإنفعال .. والتصور .. والتردد .. والعزم .. والاندفاع .. هي " مفتاح مصيرنا "

المشكلة هي الإنسان ... الإنسان هو الظرف الحاسم .. والعامل المهم في الحياة...

أنت حرف في كتاب رائع لا نهائي اسمه الدنيا ولن يستطيع الحرف أن يدرك الغاية من وجوده إلا إذا أدرك الدور الذي يقوم به في السطر الذي يشترك في حروفه .. وإلا إذا أدرك المعني الذي يدل عليه السطر في داخل المقال .. والمقال في داخل الكتاب ..

لا بد أن يكون عمرك هو عمر الأبد لتحضير رواية الحياة بكل فصولها وتعرف الحكاية..

لكي تعرف لماذا قامت الحرب .. وما دورها .. لابد أن يكون لديك علم كامل بما كان يجري قبل هذه الحرب .. وما جري أثناءها .. وما جري بعدها .. أما إذا كنت جنديًا بسيطًا في الكتيبة تتلقي أمرًا وتنفذه ثم تموت فلن تكون حياتك أكثر من لحظة في هذه الحرب .. ولن تستشرف من مكانك رؤية تعرف منها القصة كلها بخباياها وأسرارها.

من هي المرأة الفاضلة

يقول سليمان – عليه السلام – في التوراة:

امرأة فاضلة من يدلني عليها.. إنها أثمن من كل ما في الأرض من ماس و لآلئ.. فتشت في الألف امرأة فلم أجدها.

فمن هي تلك المرأة الفاضلة التي فتش عنها سليمان الحكيم في نسائه الألف فلم يجدها..؟!

سمعنا عن نساء فاضلات حكى عنهن التاريخ و جرت حياتهن مجرى السير.

مريم العذراء.

و خديجة زوج الرسول – ﷺ –.

و آسيا امرأة فرعون.

تلك كانت أسماء و سير و حكايات غبرت و مضت.

فماذا يتصور الذهن اليوم حينما يحاول توصيف المرأة الفاضلة في زماننا؟

في القاموس الدارج أنها امرأة تحب حتى الموت.. هكذا تقول الأغاني.. و هكذا تقول أجهزة الإعلام.

و أنا أسأل.. موت من.. ؟!

المشاهَد أن كل النساء يحببن حتى الموت.. حتى موتنا نحن.

و عطاء الحب من المرأة طبيعة و فطرة و ليس فضيلة.

و هو أيضا ليس فضيلة، لأنه عطاء يتلقى مقابلا من النشوة، و اللذة الفورية فهو عطاء مجز و تكاليفه ممتعة.

و مريم العذراء سيدة نساء العالمين لم تعط من هذا النوع من الحب.. و هي لم تحب رجلا.

و خديجة كان عطاؤها الذي ميزها هو عطاء من نوع آخر.. فقد أعطت النبي الأمن و الأمان، و كانت له أما و زوجة و ملجأ، و مأوى من عداوة الكفار، و مكرهم و تآمرهم.. ثم أعطت نفسها و حياتها و مالها لرسالته و أهدافه، و اتخذت محبوبه عين محبوبها، و طريقه عين طريقها، فأحبته لله و أحبت الله فيه، و اتخذت دستوره حياة، و اختارت هجرته إلى الله هجرة محببة لها، و كانت حياة الإثنين معا أنسا كاملا و ائتناسا و ملاء كاملا لا خواء فيه و لا ملال.. و لهذا لم يفكر الرسول أن يتزوج عليها أو يجمع عليها بأخرى.. بالغة ما بلغت من الجمال.. و هي التي كانت تكبره بعشرين عاما.. و لم يعدد بين زوجاته إلا بعد وفاتها.

إن القضية إذن ليست قضية حب.

فهناك من تحب و لا ترحم.. و هذا حال الكثرة.

و هناك من ترحم و لا تحب.. و تلك عطاؤها شفقة و صدقة، و ذلك عطاء لا حب فيه، و ندر بين النساء من جمعت في قلبها جمعية ((الحب و الرحمة)).. تلك التي عواطفها سكن، و حنانها قيم، و حبها ظل ظليل، و ليس نارا محرقة.

و لعل هذه المرأة هي التي أرادها سليمان في التوراة.

و مثال مريم في الزهد و التجرد الكامل غير وارد الآن.. و هي في التاريخ استثناء.. ربما لن يتكرر.

و ليس هناك من يطالب المرأة بأن تكون مريم.

و لم يكن سليمان يفتش عن مريم في زوجاته الألف، و لعل مثال خديجة كان أقرب إلى تصوره، و هو أيضا أقرب إلى تصورنا نحن و إمكاناتنا.

فحسب الرجل امرأة، تستطيع أن تتخلص مما في صدرها من غلّ، و تغلب في

نفسها صفات التسامح، و اللين و المودة و الوداعة، على الانتقام و الغضب و الغيظ. امرأة تكون له أماً و لرسالته عوناًو سندا.

فتلك هي الشخصية النورانية.

و سماتها هي تلك ((الجمعية النادرة بين الحب و الرحمة)).

و هي جمعية لا تجتمع إلا في الأشخاص النورانيين.. الأشخاص الذين استطاعوا أن يرتفعوا على جبلتهم الطينية، و يتجاوزوا ضروراتهم البشرية.. فنزعوا ما في صدورهم من غلّ.. و أصبح الحاكم عندهم هو الجانب الرباني من نفوسهم.

و هؤلاء قلة نادرة.. يحتسبون في التاريخ بالأسماء.. رجالا و نساء.

و إذا كانوا في الرجال قلة فهم في النساء أقل، لأن الله جعل الجبلة البشرية في النساء أقوى منها في الرجال، و جعل من النساء لحم العلاقة الزوجية و دمها و هيكلها، و جعلهن بذلك أكثر واقعية و أكثر ارتباطاً بالأرض، و أكثر خضوعاً لضرورات البشرية و أحكامها، و أقل قدرة على التجرد و التحليق، و الاستعلاء على الجبلة الطينية؛ و لذلك أعد المرأة للبيت و الأمومة، و أعد الرجل للفلسفة.. و عهد بالطفل إلى المرأة.. و عهد بالنبوة و تغيير العصر إلى الرجل.. و بذلك جعل المرأة هي الأساس، و هي العنصر المحافظ.. و الرجل هو أداة الانتقال و عنصر الثورة.

و لذلك فتش سليمان الحكيم في الألف زوجة فلم يجد امرأة فاضلة واحدة.

و انسحب فشل سليمان على البشرية.

فلا عجب إن كنا أكثر فشلاً من سليمان.. و لنا عذرنا و لهن عذرهن.

و لا عجب فنحن في عصور أكثر ظلمة، و أكثر مادية من عصر سليمان.. عصور أصبح فيها الحديد و الصلب و البترول و الذرة حكاماً على مصير الأرض.

فاسألوا الله الرحمة..

و لا تسألوا غيره فتهلكوا.

و حاولوا أن تكونوا فضلاء أولاً، قبل أن تفتشوا عن المرأة الفاضلة.. فالثمار لا يمكن أن تظهر إلا إذا ظهرت الزهور أولاً.

و لتجد امرأة كخديجة، لابد أن تكون رجلاً كمحمد.

و تربية الفضيلة في النفس أمر مختلف عن تسمين الدجاج أو تربية الأسماك.. فليس للفضيلة وصفة علمية تنمو بها و لا بذور تُشترى من السوق.. إنما الفضيلة نور.. و لا يمكن أن تتنور النفوس إلا بالاتجاه إلى مصدر الإشراق.. إلى الله صاحب الفضل في كل فضيلة.

و لذلك كان أولو الفضل و الفضيلة الحقة هم الساجدين و الساجدات..

و إذا رأيت فضيلة في امرأة غير مؤمنة، فتلك فطانة و ذكاء لا فضيلة، و تلك أخلاق التعامل التي تراها في البقالات الناجحة و شركات الائتمان.. و ذلك أمر مختلف.

إنما الفضيلة نور و عطاء من ذات النفس، بلا حساب و بدون نظر إلى مقابل، و هي صفة ثابتة تلازم صاحبها في جميع مواقفه.. و لا تتلون بالمصالح.. فكما أن الله بكرمه يرزق المؤمن و الكافر.. كذلك الذين أخذوا كرمهم من عند الله تراهم يمدون يد المعونة إلى أصدقائهم و أعدائهم، و هذا شأن النور يدخل القصور و الجحور دون تميّز.

و صدق سليمان الحكيم.. فإن من يرزقه الله امرأة فاضلة.. فقد رزقه جميع لآلئ و ماسات الأرض.. و أكثر.

و قليل في الأرض أمثال هذا الرجل.

***

القرآن وبناء الأهرامات

يتساءل الدكتور العالم مصطفى محمود عن سرِّ بناء الأهرامات، والكيفية التي تماسكت فيها ٢.٦ مليون قطعة حجر بلا إسمنت! أحجار وكتل ضخمة يراوح وزنها بين ٢.٥ و ١٥ طناً، حتى بلغ وزن القطعة الواحدة منها في سقف قبر أحد الملوك ٧ طناً، وهو ما يعادل ثقل قاطرة سكة حديد. فكيف رفعت تلك الأحجار؟ علماً أن ارتفاع الهرم الأكبر يصل إلى ١٤٩ متراً، وقيل ١٤٦ متراً، أو قل ناطحة سحاب مكونة من ٤٨ دوراً! وهو أعلى بناء في العالم لمدة ٤٥ عام، وحتى القرن الـ ١٩. ولا يكتفي الدكتور مصطفى بتساؤلاته تلك، ولكنه يستدركها بسخرية لاذعة من المناهج المصرية في تفسيرها لبناء الأهرامات، واختزالها المعرفة في ما عرف بـ «المصطبة الترابية»، وفكرة بنائها حول الهرم، والتي تتكون برواية المفسرين من الطوب النيء الذي جُرّت عليه بكرات من الخشب المحملة بالأحجار. في تحليل لا يرى مصطفى محمود أنه ساذج وحسب، بل ومضحك أيضاً. فكيف نصدّق أن حجر غرانيت بوزن ٧ طناً، تجره خشبة مرتكزة على طوب، ومن تحته ساتر ترابي، عدا عن أوزان الـ ١ ألف عامل وهم يجرون الأحجار على المصطبة السحرية؟ ولو قيل إنها قاعدة خراسانية بعجلات من حديد صلب لكانت أقرب إلى المنطق العلمي. ليبقى السؤال الحائر: كيف بُنيت الأهرامات إذا؟

موضح السر كله في مقطع موجود على موقع «يوتيوب». السر المذكور في القرآن منذ ١٤ قرناً. وللأمانة، فحكايات الإعجاز العلمي في القرآن التي زاد انتشارها وتسويقها - وعلى افتراض حسن نية أصحابها ومروجيها - غير أن بعضها قد يكون بسطحية المناهج المصرية في تفنيد بناء الأهرامات، فإن كنت تنتظر التفسير المقنع والمادي لإيمانك، فالأَولى أن تراجع طريقتك. فالإيمان بالذات - ودائماً أكررها - ليس بالظاهرة العلمية ولا المنطقية، وإنما هو ما يقع في قلبك وتنشرح له روحك فتسلّم وتطمئن، ومع ذلك فقد وجدت في ذلك الاكتشاف العلمي لبناء الهرم ما يؤكده القرآن ولا يتعارض معه، بل ويثبته، ولكن قبل قرون من الزمان، وهو مكمن الجمال، وابتسامة المؤمن في القصة برمتها.

فماذا قيل قديماً؟ الاعتقاد بقيام الفراعنة بنحت الحجارة. فهل يعقل أن هذا الجهد الجبار منحوت؟ فإن قبلنا بمقولة «النحت»، فكيف نفسر تطابق كل الحجارة؟ فأنت لا تجد مسافة بين الحجر والآخر. وما تآكل الحواف إلا لتعاقب السنين وعوامل التعرية، ولا يلغي حقيقة تماثلها وتراصها. ولو نحتت مثلاً، فأين هي المعدات والأزاميل المستخدمة؟ لِمَ لمْ يتم العثور عليها عند الحفر والتنقيب؟ ولمزيد من الإيضاح يرى العالم والبروفيسور الفرنسي جوزيف دافيدوفيتس أن الأهرامات بنيت من الحجر الجيري القليل الصلابة نسبياً بعد تذويبه بماء النيل وتحويله إلى طين، ثم خلطه بمواد أخرى كالجير و«النطرون» الذي استخدمه المصريون في التحنيط، فتصب كلها في قوالب حجرية محكمة، ثم تسخن على درجة حرارة عالية لتتفاعل وتتكون على هيئة حجارة تشبه تلك الناجمة عن البراكين أو المستخرجة من الجبال. فما الذي يؤيد حقيقة هذه النظرية؟

لقد ثبت وبتقنية «النانو» وجود كميات من الماء في مكونات حجارة الأهرامات، كما أثبتت الأشعة السينية وجود فقاعات هوائية داخل عينات الحجارة المأخوذة، ومثل تلك الرطوبة وفقاقيع الهواء - والأخيرة ربما تشكلت أثناء صب الأحجار من الطين، فصعدت بفعل الحرارة والتبخر إلى قمة الحجر أثناء المعالجة - لا تكون عادة موجودة في الأحجار الطبيعية والصخور الرسوبية التقليدية.

لنأتي إلى موضوع التقاء الأحجار المتلاصقة الذي ينفي أن تكون جلبت ثم نحتت، والاحتمال الأكثر واقعية وذكاء أن الطين صُبَّ في قوالب خشبية متراصة وقابلة للاستعمال المتكرر، فجاءت أشكال الأحجار متماثلة، ومن بعد الصبِّ كان للتسخين دوره، وهي طريقة عرفت قديماً في بناء الأفران أو المواقد لصناعة التماثيل من الطين الممزوج بالمعادن وبعض المواد الطبيعية، بعد إيقاد النار عليها حتى تتصلب وتجمد. وعلى رغم أن هذا الاكتشاف التي قبع في الظل منذ العام ١٩٨١ أعيد اكتشافه العام ٢٦ بالتحاليل المخبرية المتطورة التي تنفي الشك عنه، إلا أن من علماء المصريات من رفض نظرية دافيدوفيتس. والسؤال المتعلق بالمقالة هو: أين إعجاز القرآن من هذا الكشف؟

يقول الله تعالى: «وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى...». فإن تقلصت مساحة الرأي الشخصي في هذه المقالة، فلمصلحة تقديم المعلومة للقارئ، ووجود ما يدافع عنها في كلام الله. وكل عيد ونحن وديننا وقرآننا بخير.

***

أنا ونفسي والشيطان

قالت لي نفسي: نارك وجنتك بين جنبيك.. نارك وجنتك فيما تختاراً وما تعجل إليه من أقوال وأفعالاً وما تبادر إليه من عمل وما تمتد إليه يدك من حلال وحرام. يدك هي التي تحفر بها قبرك وتصنع بها مصيرك ولسانك هو الذي يهوي بك إلي الهاوية أو يصعد بك إلي أعلي عليين.. أنت ماتقول وأنت ماتفعل. انظر ماذا تفعل تعلم مسكنك وتشهد قيامتك قبل قيامتك وتعلم ساعتك قبل ساعتك.

قال لي شيطاني مستنكرا: وأين أنت الآن من قيامتك وأين أنت من ساعتك؟ هذا الوسواس الشؤم الذي تصحو وتبيت فيه.. انظر حولك يافتي.. أنت مازلت في الدنيا اقطف زهرتها وانعم بلذاتها وأمامك فرص التوبة ممتدة بطول عمرك.. وأنت ماعشت فأنت في رعاية التواب الغفار غافر الذنب وقابل التوب.. لاتعقد أمورك واضحك للأيام تضحك لك..

قلت وأنا أتحسب كل كلمة: تضحك لي أو تضحك علي يالعين.. ومن أدراني أن ما أقول الآن هو آخر أقوالي وما أفعل الآن هو ختام أفعالي وأني ميت اليوم ومن مات فقد قامت قيامته وبدأت ساعته.

قال شيطاني.. أعوذ بالله من غضب الله

ماهذا الكابوس الذي تعيش فيه حياة كالموت وموتا كالحياة لم يبق إلا أن تصنع لنفسك تابوتا وتنسج لك كفنا تتمدد فيه.. أين أنت من هذا اليوم يارجل؟!

قلت: ومن يدريني أن بعد اليوم بعد.

قال شيطاني: هل أقمت من نفسك قابضا للأرواح وفالقا للإصباح أم أنك المتنبي الذي لا تخيب له نبؤة.. إلزم غرزك يارجل ما أنت إلا عبد من عباد الله.. عش يومك كأنك تعيش أبدا.

قلت: ما قالوها هكذا يالئيم.. بل قالوا.. أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداًواعم
لآخرتك كأنك تموت غدا.. أرأيت كيف تقلب كل الحقائق.

قال شيطاني: إنما أردت لك الحياة وأردت أنت لنفسك الموت.. ومرادي كان دائ
مصلحتك.

قلت: بل موت النفوس كان مرادك وهلاكها في الجحيم كان شغلك الشاغ
وهمك المقيم ياسمسار الجحيم.

هل كنت أكلم أحدا؟؟.. أم كان يكلمني أحد

هل كان حوارا بحق.. أم كان خيالا.. أتخيله

إن حديث النفس حقيقة لاشك فيها.. وهو نوع من الإعجاز الرباني.. فهو حيث
داخلي لايسمعه غيرك ولا يطلع عليه سواك.. ولايستطيع أي جهاز الكتروني بشري أن
يسجله عليك.. والنفس فيه طرف.. والطرف الآخر يمكن أن يكون النفس ذاتها.
ويمكن أن يكون الشيطان.. وابراهيم الكليم أبو الأنبياء كلمه ربه.. وهكذا ترتفع المكالمة
لكل نفس علي حسب قدرها ومستواها.

يقول ربنا محادثا موسي في سورة الأعراف الآية ١٤٤:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ
وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وحينما تكون وساوس النفس من المستوي الشيطاني.. يمكن أن يكون الشيطان
طرفا في الحديث.. وحينما ترتفع النفس إلي المستوي الملائكي.. يمكن أن يكون القرين
المتحدث ملائكيا.. وكلما ارتفع مستوي الحديث ارتفع مستوي المتحادثين.

وللغيب علومه كما أن للفيزياء علومها وللذرة علومها وللنفس علومها.

والشيطان حقيقة وليس شخصية روائية خيالية من بنات خيال المؤلفين.

وفي آخر الزمان حينما تقوم القيامة سوف يعترف الشيطان بما فعل بضحاياه أمام الملأ وأمام الحشر المجتمع من كل الخلائق.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(إبراهيم:٢٢).

وهكذا ينزل ستار الختام علي الدراما الكبري للوجود التي استغرقت أجيالا وقرونا من آدم أول الخلق إلي الخاتم محمد بن عبدالله آخر الرسل عليه الصلاة والسلام.. في كلمات هائلة تتصدع لها القلوب ومشهد جامع يشيب لهوله الولدان.

وسوف نري الشيطان ساعتها وهو يتكلم في قلب الجحيم وسوف نسمع آخر كلماته:

إن الظالمين لهم عذاب أليم

إن الشيطان حقيقة وليس أسطورة

والنار حق

والعذاب حق

إنها ليست أوبرا ياسادة.. يصفق بعدها الحضور وينزل الستار.. كما يتصور الأوروبيون المتحضرون عشاق الفن.

والأمر ليس كما تصوره الرئيس ميتران في الحديث التليفزيوني الذي أجاب فيه علي المذيع الذي سأله.. ماذا تقول لله حينما تراه ياسيادة الرئيس.. فأجاب ميتران:

سوف أقول له: SORRY

هكذا قال الرئيس ميتران في بساطة فرنسية

ولا أظن أن الرئيس ميتران سوف يري الله.. ولا أظنه سوف يقوي علي مكالمته.

ولا أظنه سوف يجتمع له رشد أمام ذلك المشهد الرهيب أو يبقي فيه لب لينطق.

وكان آخر ماشهدت من الرئيس ميتران مشهدا لا أنساه أيام حرب الإبادة التي أعلنها الصرب علي مسلمي البوسنة.

رأيته وقد جاء مسرعا من فرنسا ليري بعينيه مصارع المسلمين في الأرض الأوروبية.. ووقف يتلفت حوله في ثقة واعتداد.

أخيرا جاء يوم الطرد النهائي للمسلمين من الأرض الأوروبية

هكذا نطقت عيناه.. وإن لم تنطق شفتاه.

وقلت له في نفسي ساعتها

بل لم تنته القصة بعد ياسيادة الرئيس

وقد انتهت حياة ميتران ومات بالسرطان

ولم تنته القصة بل تعددت فصولا.. فشاهدنا لها فصلا ثانيا في حرب كوسوفا ثم فصلا ثالثا في حرب الشيشان تخوضها روسيا بتمويل أمريكي ومساندة إسرائيلية وسكوت أوروبي.

والحرب معلنه علي المسلمين في كل مكان هذه الأيام

وللشيطان أعوان من شياطين الإنس بلا عدد..

ولله شهداء يختارهم كل يوم ليزين صدورهم بأوسمة البطولة

والحرب مستمرة.. وسوف تتعدد فصولا إلي آخر الزمان.. حينما ينزل ستار الختام.. وتعلن الحقائق في مشهد جامع هو يوم القيامة

واعترف بأني شديد الفضول لرؤية السيد ميتران ساعتها.. شديد الفضول لما

سيقول.. هل سيقول لرب العالمين

SORRY

كما زعم في حديثه الكوميدي في التليفزيون

ليرحمنا الله جميعا..

فهذا مشهد يشق علي الجبابرة

فما بال الضعفاء أمثالنا

ومازلت أعجب كيف قالها.. بهذه البساطة الفرنسية

إنه قطعا لم يتصور أنه يتحدث عن واقع سيقع.. ولم يخطر بباله أبدا أنه سوف يحدث كما تروي الكتب الدينية

والأوروبي العادي يفتح فمه في دهشة إذا قلت له إنه سوف يقوم من الموت ليقف بين يدي الله.. رب العالمين..

ولو أنه أيقن بذلك وآمن به.. لما كان هناك استعمار.. ولما كانت هناك تلك المجازر البشعة والإبادة المنظمة التي زاولها الرجل الأبيض في حروبه مع السود في إفريقيا وآسيا.. ومع المسلمين في كل مكان..

وإنما الظلم كان يملأ صفحات التاريخ ليقين الظالمين بأنه لا قيام بعد الموت ولا حساب ولا مساءلة.

والكبار كلهم ظنوا أنهم لايموتون ولايحاسبون.. والذين خطر لهم أنهم يمكن أن يموتوا كان يقينهم أن الله سيبعثهم ملوكا.. وأن جنة الآخرة لهم.. كما كانت جنة الدنيا لهم.. وشيطانهم صنع لهم ذلك الوهم وأقنعهم به..

وكان قدماء المصريين أكثر من آمن بالبعث والحساب والميزان

ولهذا كان المصريون أكثر الشعوب إنسانية.

إنه إفك قديم قدم التاريخ حكاية إنكار الناس للبعث وأكثر الشعوب تقدم وأقواها بأسا كانت أكثرها كفرا.

وهكذا كان ظن جاجارين حينما خرج من جو الأرض إلي الفضاء.. وكانت أول رسالة أرسلها إلي الشعب الروسي.. أنا في فضاء بلا نهاية.. لا وجود لأحد هنا غيري.. و أجد الله.. وحيثما أتلفت لا أجد إلها.. لا أحد سواي.. ورددت أبواق الإذاعة الشيوعية في موسكو لفورها.. أن جاجارين جاء بالخبر اليقين وأنه لم يجد إلها في السماوات.

هل تصور جاجارين أنه سيجد الله في شرف استقباله وأن موسيقي الملائكة سوف تعزف له السلام الملكي.

وقد مات جاجارين بعد ذلك بشهور في حادث تصادم.. ليس في الفضاء.. ولكن في الأرض.. وفي أزقة موسكو كأي كلب ضال.. ورأي ساعتها ماكان ينكره.. ولكن بعد فوات الآوان بعد أن أصاب لسانه الخرس وتوقف قلبه عن الخفقان.. ودفن مع سره في ظلام النسيان.

وسيظل مابعد الموت طلاسم وظنونا وغيوبا مغيبة

ولن يكشف السر إلا بعد أن يغلق الباب الدائري خلف كل مرتحل ويستحيل التواصل بينه وبين أحد من الأحياء.. وفي ظلام الوحدة المطلقة سوف تتجلي له الحقيقة وسوف يري كل شيء.. وساعتها لن ينفع الندم.. فكتاب الأعمال أغلق.. وحياته انتهت.. ومابقي سوف تتقطع له نياط القلوب.

والويل لمن لايفهم

إن الله موجود ليس لأن المسلمين يؤمنون بوجوده ولكن لأنه حقيقة مطلقة أزلية لا معني لأي شيء بدونها.

الله هو سر الجمال والرحمة والمودة والحرية والحياة.

وأسماؤه الحسني مطبوعة علي الوردة وعلي إشراقة الفجر وعلي ابتسامة الوليد وعلي إطلالة الربيع وعلي كفتي الميزان وعلي صولجان الحكم.. فهو العدل الحكم.. وبدونه يستحيل العدل وتستحيل الرحمة وينطمس الكون ويظلم فهو نور السماوات والأرض.

وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده.

إن الدين يبدأ به.. والفلسفة تنتهي إليه.. والعقل يتوقف عنده.. فلا كيف ولا كم ولا أين ولا متي..!!!

وإنما.. هو..

ولا إله إلا هو

ولا يملك العقل إلا السجود.. ولا تملك العين إلا البكاء ندما

رفعت الأقلام وجفت الصحف

إسألوا لنا ولأنفسكم الرحمة..

وللتمسوا لنا ولأنفسكم النجاة

لم يبق إلا التوسل..

***

الأولون والآخرون

أكان للإسلام في الماضي حضور في سياسة الدولة وفي حياة الفرد وفي معنـي كلم
عروبة وفي الأمة العربية كلها من المحيط إلي الخليج.. وكانت الشريعة الإسلامية هي عـ
القانون السائد وكانت هي التي تحكم حركة المسلم في كل الأقطار الإسلامية في زمـ
الخلافة..

ولكن الاستعمار الفرنسي والإنجليزي والأمريكي الذي بدأ يحكم أخيرا سلو
الأفراد من خلال الاقتصاد الحر والعولمة تدخل في صياغة حياة المسلمين والإخو
المسيحيين علي اتساع رقعة الشرق الأوسط والشمال الأفريقي والعالم كله.. وتراجـ
الإسلام وتراجعت معه المسيحية الأصولية في تقهقر منتظم خطوة بعد خطوة لتكتفي
بحضور محدود في الكنيسة والمسجد ومنبر رمزي في الأزهر والفاتيكان.. وانسحبت
المرجعية الدينية إلي قرآن محفوظ يتلي وأناجيل مدونة يقدسها المسلمون والنصاري.. ف
بحر طام من العلمانية المتحررة من كل الشرائع المتحللة من الأخلاق.. في شبه إجماع علي
التحرر من كل المقدسات والحياة في وثنية جديدة بلا أصنام.. معبودها الوحيد.. هوي
النفس ولذاتها ومشتهيات الجسد ورغائبه.. وضمير جديد لا يخشي إلا القانون المدني
الوضعي ولا يحسب حسابا لأي سلطة سوي سلطة الشرطة وضباط الأمن.. وفيما عد
ذلك.. الدنيا لك تغترف منها كما تشاء.

وفي هذا البحر الطام تراجع الإسلام إلي رقعة صغيرة هي مساحة السجادة وإلي
مخبأ مستور هو القلب.. لمن كان له قلب وألقي السمع وهو شهيد.

وفي قلوب هذه القلة المباركة يسكن الإسلام الحقيقي التي بلغها الإعلام الإلهي
كاملا غير منقوص.. والله وحده يعلم تعدادها.. هل هي بضعة ملايين.. أو أقل.. أو
أكثر.؟

وكم من هؤلاء اشتمل إيمانه القلب والقالب وسكن الوجدان والبنيان ؟؟ وكم

منهم وقف إيمانه عند حدود القلب وقصر عن شمول الجوارح.. وكم منهم أكتفي باللسان وبالإسلام الشفوي وبشهادة لا إله إلا الله

يقول ربنا عن المؤمنين.. وقليل ماهم

وسيظل هذا القول نافذا إلي يوم القيامة..

لقد بدأ الإسلام غريبا

وسيعود غريبا

ونحن الآن في زمان هذه الغربة.. رغم كثرة المساجد وجلبة الميكروفونات وضجيج المنابر ونداءات المآذن.. وهرولة المصلين.. وصراخ المتشددين.. فهم إلي الآن قليلون.

وهم يزدادون قلة.. يوما بعد يوم.. رغم أن المسلمين يزدادون كثرة في العدد والمطحنة الأمريكية تطحن من النفوس مايقبل الطحن

والمطحنة الدنيوية تذرو الباقي هباء

والأرحام تدفع

والأرض تبلع..

والتاريخ ماض لا يلوي علي شيء

هل تكون للإسلام عودة ؟؟

سؤال يلح علي ذهني دواما

ربما بعد كوارث آخر الزمان حينما تزول طواغيت الدنيا

والله يختار الأصلح دائما

والنظام عند الله أفضل من اللانظام ولو كان علي رأسه طاغوت..

فالفوضي شر مطلق وخراب مطلق

والله قد يترك العولمة بشرورها لأنها شكل من أشكال النظام.. والنظام أفضل مـ
الفوضي.. والعلمانية تسمح للمؤمن بأن يؤمن في مواجهة أغلبية تخالفه طالما أنه يحتف
بإيمانه لنفسه ولا يتدخل في اختيارات الآخرين.. ولا يكره أحدا.. وهذا لن ينقض قانو
الابتلاء الكوني وسيظل المؤمن قادرا علي اختيار الإيمان.. وفي ناموس الله وسنته إلا يكـ
أحدا علي عبادته.

ويقول ربنا عن المؤمنين ثلة من الأولين وقليل من الآخرين أي أن الكثرة مـ
المؤمنين كانت للأولين.. أما الآخرون المؤمنون فسيكونون قلة في آخر الزمان.. لأ
الحريات العلمانية لن تشجع علي إيمان المؤمن وإن كانت لن تمنعه من اختيار الإيمان إ
أراد.

والله وحده يعلم كيف سيكون حال الآخرين..

ونحن ولاشك في ظروف أفضل من ظروف هؤلاء الآخرين في آخر الزمن وفي
ختام أيام الدنيا.

ولم تبلغ الروح الحلقوم بعد

ومازلنا نقول لا إله إلا الله بالفم المليان ومازال يقوم بحق هذه الشهادة القادرو
عليها.. وفي أقصي الأرض في بلاد الشيشان من يقاتل دونها وإن عدم النصير.

ومازال للطامعين في جنة الله فرصة.. لم تأت بعد العلامات الكبري للساعة.. ولم
تغلق أبواب التوبة..

سبحوا ربكم واعبدوه يا إخوة وأنتم في عافية فلا أحد يعلم متي تفاجئنا النهاية

ولا تقولوا مع الشاعر الجالس علي مائدة الشراب

دعنا نعش يوما وفي العمر فسحة

وربك غفار وربكم أكرم

فلا أحد يدري متي تطول هذه الفسحة.. وهل نجد فيها فسحة فعلا لنعـود إلي الله وإلي أنفسنا.. أم تفجأنا الزلزلة فتموت في فمنا الكلمات ويطبق علينا صمت القبور.

وقصة صراع الإيمان والكفر علي هذه الأرض التـي انتهـت بغلبـة الكفـر وشـيوع المادية والإلحاد.. هي قصة غلبة المصالح الدنيوية العاجلة علي إنسان قصير النظر متعجـل بطبعه.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾(الأنبياء:٣٧) هكذا يقول ربنا.

وهذا هو الامتحان الصعب الذي طرح علي الإنسان من البداية.. لأن الله كان يريد لفردوسه الصفوة وكان يريد استخلاص هذه الصفوة من الخبث الكثير.. وكـان يعلـم أن أكثر الناس لا يفقهون وأن أكثر الناس لا يعقلون.. وأن أكثرهم كالأنعام بل هـم أضـل.. ومع ذلك اقتضت رحمته أن يعطي الجميع فرصة متساوية وأن تصل كلماته وكتبـه وهديـه وإلهامه إلي الجميع.

وقد وصلت كلماته وكتبه عبر الرسل والأنبياء وعـبر العلـماء وعـبر المطـابع وعـبر أجهزة الراديو والتليفزيون والانترنت بجميع اللغات وساهمت مخترعات الكفرة في نشرها بأكثر مما ساهمت وسائل المؤمنين.

وأوحي الله إلينا مـن خـلال عقولنـا وضـمائرنا ونفوسـنا وأرواحنـا ومـن خـلال ملائكته.

واقتضت عدالة الامتحان أن يطلق علينا شياطينه حتي يبلغنا وسواس أبالسته مـع خواطر ملائكته من جميع الجهات لنختار علي علم وعلي بينة ونفعل مايحلو لنـا بعـد عـزم ومراودة وتدبر وتفكر.. وليجد كل منا بغيته.. الذي أراد أن يقتل واستولي عليـه شـيطانه تركه الله ليقتل.. والذي أراد أن يسرق وأستولي عليه طمعه تركه الله ليسرق والذين أقاموا المذابح للشعوب تركوا ليباشروا الذبح علي راحتهم والظالمون ظلمـوا والجبـارون تجـبروا

والسفاحون سفحوا والعلماء عكفوا في محاريب العلم والفنانون سبحوا في سموات الإلهام.

وأهل الخير والصالحون والمفكرون والبناءون هواة الجمال فتح لهم ربنا كنوز إلهامه والأولياء والصوفيون تنزل عليهم بأنواره.

يقول القرآن عن رب العزة في سورة إبراهيم

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾(إبراهيم:٣٤)

اختار لنا ربنا من كل بستان الزهرة التي تناسب سؤلنا والفكرة التي تناسب استعدادنا وطبيعتنا.

﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٧٢)

أخرج الله منا ما كنتم من مواهب وما نخفي من أطماع وما نضمر من نيات وخفايا.. لنتعرف علي فضله وإلهامه وهباته.. وأيضا لنتعرف علي شرورنا وآثامنا وخطايانا.. ولنكون علي بينة من أنفسنا ومن أعمالنا.

وما جري لنا وما جري علينا يؤكد أن هناك بعثا وأن هناك مساءلة وأن هناك وقفة وأن هناك خاتمة بدونها تبدو حياتنا عبثية وتبدو دنيانا مصادفات عشوائية بلا سياق وبلا نتيجة.

البعث حقيقة.. بدونها تفتقر الحكاية إلي المعني

وكفة الحياة بدون البعث ساقطة

والبعث سوف يعيد الكفة الي اعتدالها وسوف يكشف لنا المعني والعبرة والغاية من كل ماحدث أفلسنا مسرح عرائس نتحرك بالخيوط وينتهي العرض بإسدال ستار.. وماكان ربنا يلهو.. تعالي ربنا سبحانه عن ذلك علوا كبيرا..

بل هناك معني وغاية من كل ما حدث

وسوف يلقي كل مجرم جزاءه.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۞ وَإِن مِّنكُمْ إلا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾(مريم:٦٨/ ٧١).

سيؤتي بنا جميعا في مشهد رهيب جامع ليوقف بنا في حلقة حول الجحيم لنراها رأي العين ثم ينزع من كل شيعة أيهم أشد إجراما ويلقي به في سعيرها..

وهذا هو مشهد الورود الجامع المذكور في القرآن.. ثم يحتم القرآن بلا لبس أو إبهام مجيء ذلك اليوم ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾(مريم:٧١)

لا كلام عن عذاب نفسي أو رمزي بل هو إلقاء في النار ومباشرة للجحيم.

وسوف يكون لنا أجسام من نوع آخر تتحمل أهوال السعير.. وسوف يتكلم أهل النار وهم في النار ويتحاورون ويتلاعنون.. كلما دخلت أمة لعنت أختها(٣٨ ـ الأعراف) إنها أبدان من نوع آخر.

وسوف يكون لنا في النار حياة وطعام وشراب فيأكل أهلها الزقوم ويشربون الماء الحميم

والجنة خلود ولا موت والنار خلود ولا موت

يقول ربنا عن أهل النار وأهل الجنة ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾(هود:١٠٥)

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إلا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾(هود:١٠٦/ ١٠٧)

واستثناء المشيئة هنا لا يعلم معناه إلا الله

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إلا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾(هود:١٠٨)

واستثناء المشيئة هنا لا يعني الإخراج من الجنة فالعطاء غير مجذوذ أي غير منقطع.. وربما كانت المشيئة تعني الخروج من الجنة إلي جنات أخري وسماوات وحيوات متنوعة بلا انتهاء

والآخرة عوالم من الأسرار يبوح القرآن عنها بمقدار.

ولا يصح أن نقرأ ماجاء في القرآن بشأن الآخرة كما نقرأ رواية خيالية أو اسطورة من أساطير ألف ليلة.. فالقرآن دقيق وهو حق مطلق وصدق مطلق.. والله يتحدث عن واقع سيقع حتما وعقلنا المحدود يفهم علي قدر استطاعته دون تأويل.. فنحن هنا أمام القادر بلا حدود..

والعاقل من يرتدع ويلزم حدوده دون جدل فالفارق كبير بين رب يتكلم وإنسان يتكلم.. والبون شاسع بين نص بشري ونص إلهي.. وبين قرآن محكم يتحدي ربنا بكلماته العلماء والبلغاء.. وبين كلام مرسل يأتينا عفو الخاطر في صورة مقال أو رواية.

يقول ربنا لنبيه: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾(المزمل:٥)

فهو ليس أي قول.. بل هو القول الثقيل

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾(الحشر:٢١)

الجبال تتصدع من الخشية إذا نزل عليها هذا القول.

إن القول الثقيل ليس تعبيرا مجازيا.. وإنما هو أمر ثقيل لا تحتمله الجبال وعبر كلمات القرآن تصلنا رسالة يتصدع لها القلب وهو يصغي، وهذا شعور يعرفه كل مؤمن.

إن مباشرة الكلمة القرآنية للقلب هي التي صنعت هذا الدين وهي التي أطلقت الأولين من المسلمين كالزوابع في كل أرجاء الأرض.. يفتحون أقطارها يحملون معهم شعلة التوحيد أينما ساروا.

كم من الأميال قطع عقبة بن نافع علي فرسه من جبال مكة الشهباء الي أقصي الشمال الأفريقي في الصحراء الليبية الجرداء

إنها رواية من روايات الفروسية العجيبة تخطف القلب

وكيف انطفأ سراج القلب وتفرقت الأمة أشتاتا لا تجتمع علي كلمة

تلك رواية الأولين والآخرين عبر قرن من الزمان.. هل تكون لهذه البطولات عودة؟!!

ذلك سؤال يجيب عنه التاريخ

ولا أري لهذه الصحوة بوادر..

بل أري سحبا منذرة

إلا أن يشاء ربي أمرا.

***

كلنا في نفس السفينة

السارق الذي يسرق في غفلة من العيون يتصور فى العادة انه يقوم بعمل من أعمال الذكاء .. كما يظن الانتهازى الذى يقفز على أكتاف الآخرين بالرشوة واختلاس الفرص أنه أمهر وأقدر من غيره .. كما يتخيل صاحبنا الذى يخترق إشارة المرور أو يحدث أعلى ضوضاء فى الشارع أو يلقى بمخلفات بيته أمام باب جاره أو يتهرب من الضريبة انه شاطر وصاحب حيلة وانه استطاع ان يفوز بنصيب الأسد فى مجتمع المغفلين ..

ولو أن هؤلاء تابعوا فاتورة أعمالهم إلى مجموعها النهائى وتابعوا ما تعرضوا له من خصومات لفوجئوا بأن الأعمال ترتد على صاحبها دائما فالذين يخترقون إشارات المرور يتعطلون فى النهاية أمام اختناقات وحوادث تخصم من رصيدهم وأعمالهم أياما وشهورا فى المستشفيات .. والذى يتبول فى النهر هو الذى يشرب منه .. وعادم السيارة يزكم أنف صاحبها كما يزكم أنوف الآخرين .. ورشاش المبيدات يقتل الحشرة الضارة والحشرة المفيدة ويصيب السمك فى البحر والفاكهة على الشجر ويصل إلى لبن المرضع ولا يزال يتنقل حتى يصل إلى أكباد هؤلاء الذين رشوا المبيدات والى أيديهم فيشلها ويتلفها

إن الشر والفساد له دورة يدور فيها يوزع فيها الإضرار على كل من يمر بهم ولا يزال يتنقل حتى يصل إلى صاحبه فيصيبه ..

وهذه الدورة لا تعفى أحدا ..

كلنا فى نفس السفينة ..

والذي يخرق السفينة أو يحاول أن يسرق منها لوحا أو مسمارا سيكون نصيبه الغرق مع الباقين .. لن يقول أفلت بنصيبي مجتمع المغفلين .. فحقيقة الأمر انه أول هؤلاء المغفلين وأكثرهم غباء .. وانه لن يفلت ..

وإنما أذكى الكل هو الصادق المستقيم الفاضل الأمين.

ولو أدرك المجرم ان جريمته ستصيبه لتردد فى ارتكابها ولكن قصر النظر صور له أنه سيهرب والحق انه لم يكن يرى ابعد من انفه ..

فالعالم اتصل الآن وتقارب وتلاحم وأصبح كنقطة فى فنجان

وقنبلة ذرية تطلق فى صحراء نيفادا يمكن أن تغير علاقات الطقس فى الفلبين وتثير غبارا ذريا يؤثر على المواليد فى استراليا ويقتل الأجنة فى اليابان .. ولذلك يجتمع الآن السياسيون العقلاء ليتفقوا على عدم تفجير القنابل الذرية وعلى الحد من الأسلحة النووية وعلى الحياة فى السلام لان الحرب سوف تقضى على الغالب والمغلوب ولن يسلم من المعركة أحد.

إن تاجر المخدرات لن يهرب سليما بغنيمته فقد خلق مجتمعا من المخدرين وهو يعيش ضمن هذا المجتمع ويتعامل معه وسوف تصيبه الشرور التى أطلقها ان لم يكن اليوم فغدا أو بعد غد وان لم ترتد عليه فعلى بيته وأولاده.

والعالم بفضل العلم والأقمار الصناعية واللاسلكى والتلكس والتليفزيون اصبح صغيرا جدا .. أصبح غرفة واحدة وعائلة واحدة يرى الواحد فيها الآخر ويكلمه بمجرد الضغط على زرار

فأين يهرب المجرم بجريمته ونحن فى سفينة واحدة

متى ندرك هذا ونعيه جيدا ؟!

لو أدركناه ووعيناه جميعا لانتهى الإهمال والتواكل والرشوة والتسيب فى بلدنا ولأصبحنا على مستوى المواطن الأوروبي في شهور ..

***

قنبلة وشيكة الانفجار!

جماعة الأب جيم جونز هي طائفة بروتستنتيه متطرفة تأسست فى كاليفورنيا عام ١٩٦٣ وبلغ عدد إغضائها ثلاثين ألفا .. وقد تلقى الأب جونز تزكيات من عدد من رجال الكونجرس ومن عمدة سان فرنسيسكو ومن زوجة الرئيس كارتر وهى تزكيات شجعت حاكم جويانا على أن يمنحه قطعة ارض من ٣٧ ألف فدان يقيم عليها مستعمرته ويحقق عليها حلمه المزعوم بمجتمع تسوده المحبة والتعاون والإخاء وتزول فيه الطبقات .. وهى المستعمرة التى انتهت بحادث قتل وانتحار رهيب لأطفال وشباب ورجل ونساء جاوزوا الأربعمائة عددا وعلى رأسهم رئيس الطائفة الأب جونز نفسه الذى قاد عملية الانتحار الجماعى وكأنها صلاة أو طقس دينى

والتزكيات التى قدمها رجال الكونجرس وعمدة سان فرنسيسكو وزوجة الرئيس كارتر تدل على أننا أمام رجل لامع مؤثر بليغ وداعية من أصحاب الشخصيات المغنطيسية.

وابلغ فى الدلالة على قدرة هذا الرجل ما فعله فى آلاف الشباب ممن دفعهم أمامه هم وأسرهم وأطفالهم حتى الموت فى طاعة عمياء ودكتاتورية بشعة وكأنه الرب الواحد الذي لا يناقش.

وظاهرة التطرف الديني تكاد تكتسح العالم كله اليوم.

وقد شهدنا منها جماعة التكفير والهجرة عندنا .. وشهدنا ما فعله زعيمها بالمئات من أتباعه الذين كرسوا أنفسهم له حتى الموت وحتى الجريمة

واذا كانت هذه المؤشرات تدل على شيء فهي تدل على حالة تعطش ديني عند الشباب وحالة خواء وفراغ وضياع واستعداد للموت وراء أول صارخ فى برية يدعوهم إلى الله.

وقد كنت فى لندن من عشر سنوات وكانت جميع الشوارع تغطيها أفيشات كبيرة

عن محاضرات الزعيم الروحى والصوفى الهندى " الهاريشى ماعيشى " وكان الشباب يحجون إلى هذه المحاضرات زرافات بالتعطش الذى يسعون به إلى ملاعب الكرة وقد أطالوا ذقونهم وأظافرهم وعلقوا المسابح فى رقابهم

وقد سمعنا عن النبى الجديد " مون" وما فعله فى أوروبا

وسمعنا عن النبى الأخر الزنجى " اليجا محمد" الذى جمع حوله طائفة من أقوى الطوائف الإسلامية فى أمريكا.

وفى كل مرة نرى رجلا يصرح داعيا إلى الله فيجتمع حوله الألوف من الشباب يتابعونه فى طاعة وبراءة الأطفال.

لقد فشلت التكنولوجيا وحدها فى أن تكون هدفا للحياة وفضلت الحضارة المادية فى أن تقدم المحراب البديل عن المسجد والكنيسة وانهزمت الماركسية فى امتحان التطبيق ولتكشفت عوراتها وثغراتها وفقدت تلك اللمعة التى كانت تجذب إليها الشباب كما عجز رجال الدين التقليديون من القساوسة ومشايخ عن مخاطبة الأجيال الجديدة فأصبح الباب مفتوحا على مصراعيه لأى زعامة متطرفة يقودها أى شيطان ملثم يجيد حرفة الكلام ويتقن هذه اللغة السحرية التى يتكلم بها أهل الله .. وعادة ما يكون هذا الشيطان من أصحاب القوى المغنطيسية فى التأثير.. وحينئذ فالويل لنا منه ومن كل من يمشى خلفه.

ولا شك أن هؤلاء مع طلائع المسيخ الدجال فى عصر عجيب جمع بين الانحلال والعهر الجنسى وبين الصحوة الروحية والشوق إلى الله.

ويكاد يجتمع هذان الوجهان الوجه المادى والوجه الروحى فى كل شاب ويتصارعان أحيانا فى وعيد أحيانا فى عقله الباطن .. ولا أنسى تلك المرة التى قابلت فيها أمراة تعيش حياتها فى تبذل كامل وانحلال وكانت تبكى فى طهارة كطفلة كلما ذكر أمامها الله او استمعت إلى قرآن .. وكانت تبكى وسط ضجيج الجاز وصخب السكارى فى ناد ليلى وقد نسيت تماما أنها فى زحام وأنها وسط الناس .. وأي ناس.

وتلك هى الشخصية المزدوجة لهذا العصر المتفجر بالتناقضات

ولقد رأينا صاحبنا الأب جيم جونز يدعو إلى الطهارة والتدين ويعيش فى نفس الوقت حياة الجنس والمخدرات والشذوذ ورأيناه يمسك الإنجيل بيد ويقتل باليد الأخرى.

وإنى لأشعر أحيانا إن تحت أقدامنا فتيل قنبلة دينية زمنية وان النار تسرح فى الفتيل وان القنبلة وشيكة الانفجار .. وأننا فى أشد الحاجة إلى طلائع لترشيد هذا الحماس الدينى وتنويره حتى يأتى التحول بإصلاح وليس بموجات جديدة من الجرائم والخيط دائما رفيع جدا بين أهل الله أهل الشيطان خاصة إذا تلثم آهل الشيطان باللثام الدينى واتخذوا المصاحف والأناجيل شعارا ودعوا إلى الله والى الفضيلة والتقوى.

والفارق دائما هو تلك النبرة الحادة وذلك الميل إلى التعصب.

والمتعصبون من جميع الأديان ليسوا فى الواقع على دين سوى دين نفوسهم .. فهم عابدون لذواتهم ولتصوراتهم الشخصية وليس لله الواحد الداعى إلى التواضع.

والنبى عليه الصلاة والسلام وضع يده فى يد اليهود فى البداية وسالم أهل الشرك وعاهد الكفار ولم يرفع سلاحا فى وجه أحد إلا حينما قاتله الكل وحاربه الكل واضطهده الكل حينئذ إذن له الله في أن يدافع عن نفسه.

والمسيح قال في أولي وصاياه .. أحبوا أعداءكم .. ونحن نقول ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، ويوحنا كان على صلابته فى الحق محبا للناس عطوفا على الحيوان وقد أحب كل شيىء حتى الجبل والشجر ورمال البحر وثرى الأرض.

وتلك سمة رجل الدين الحقيقى .. حبه للعدو ونصحه للخصم قبل الصديق وكراهته للعنف إلا فى الضرورة القصوى.

والله يقول لمحمد عليه الصلاة والسلام:

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩).

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩).

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية:٢١/ ٢٢).

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ (ق:٤٥).

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل:١٠)

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ (الإسراء:٨٤).

﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة:١٠٥).

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦).

إن احترام حرية الرأى والسماحة مع وجهة النظر المخالفة وسعة الصدر مع الخصوم وحب الحياة والخير والدعوة إلى البناء وكراهة الهدم هى علامات أهل الله وهى التى تميزهم عن الشياطين الملثمين مهما قالوا ومهما دعوا .. فخذوا حذركم من هذه الموجات التى تأتى تباعا وانصتوا إلى القلوب وليس إلى زخارف الأقوال فان النار تسرح فى الفتيل والعالم قد بلغ ذروة تناقضه

***

أهل الله وأهل الشيطان

تطالعنا الأخبار كل يوم عن حوادث الشغب والتظاهر فى إيران .. لكن ما يلفت النظر أن الشعارات المرفوعة هى شعارات دينية .. وان وراء هذه الشعارات أموالا سوفيتيه تنفق بسخاء.

إنهم يحرقون المؤسسات ودور السينما ويقتلون الأطفال والشيوخ والنساء هناك باسم الدين .. وهو أمر مريب .. فالسينما أداة علمية محايدة شأنها شأن البترول والبخار والذره والكهرباء .. وهى أدوات يمكن أن تستخدم فى الخير ويمكن أن تستخدم فى الشر والفيلم السينمائى يمكن أن يكون داعيا إلى الحق والخير والجمال كما يمكن ان يكون داعيا إلى الانحلال ولا ذنب لدور السينما ولا لرواد السينما وإنما الذنب ذنب العقول الماكرة والمذاهب التى تستخدم هذه الأدوات للتهديم والسوفيت هم أول من استخدم السينما لهدم الأفكار الدينية ونشر المادية فى العالم كله.

ولا يمكن حتى للعقل الساذج البسيط أن يصدق هذه الغيرة الدينية من الرفاق السوفيت .. إنها مثل للغيرة على القضية الفلسطينية فى الشعارات السوفيتية المعلنة فى الوقت الذى تسبق روسيا كل الدول فى الاعتراف بإسرائيل ثم تكون أول من يمسك بيد عبد الناصر عن المبادرة بالهجوم على إسرائيل فى حرب ٦٧ ثم تمنع عنا السلاح فى حرب ٧٣ ثم تحاول أن تجهض المعركة فى أيامها الأولى ثم هى الآن تمنع السلاح عن سوريا بينما تهتف البرافدا لفلسطين والفلسطينيين طوال الوقت فى تبجح وتناقض عجيب.

إنها إذن جزء من ظاهرة الدجل والمتاجرة بالدين.

وهى لا تفترق كثيرا عن شعارات الأب جيم جونز الذى ساق أتباعه إلى مجزرة باسم الدين أو عن جماعة التكفير والهجرة التى ساقت أتباعها إلى الجريمة باسم الإسلام .. وكل زعيم يحاول أن يستدرج أتباعه إلى ولاء أعمى وتبعية مطلقة هو من نفس الفصيلة وان تكلم بلغة أخرى ..

وهتلر فى كتابه كفاحى والنازية والفاشية والدبابات السوفيتية حينما اقتحمت المجر والجيش الروسى حينما اقتحم تشيكوسلوفاكيا والذرائع الثقافية للطغيان والدكتاتورية فى كل مكان كانت كلها من نفس النوع ومن نفس الفصيلة .. كلها كانت محاولات لترويج مصاحف بديلة وإعلان آلهة بديلة وجر الأتباع إلى ولاء أعمى وإيمان أعمى ودعوة إلى حماس دينى تختلف فيه الرايات أحيانا وتتفق ولكنها كلها تسير فى نفس الاتجاه وتأخذ الشباب من نفسه نقطة الضعف .. نقطة الفراغ الدينى والتعطش إلى الهدف والمثال والحق والخير.

إنها جميعها تحاول أن تقدم له همزة الوصل.

وفى همزة الوصل بين شباب مثالى مندفع وبين أهداف يزوقها كل فريق على هواه ويدعى أنها الحق ..

ولكن الحق هو الله سبحانه وتعالى والله هو المنبع الوحيد للأخلاق وللكمال كما قال برجسون وكما نقول نحن فى القرآن وكما يقول كل دين ..

والخواء والفراغ والخراب النفسى الذى يعيش فيه شباب العالم الان هو بسبب افتقاد همزة الوصل تلك.

إن همزة الوصل الناقصة هى التى أودت بالشباب إلى هذه الانفجارات الانتحارية.

وهى وراء كل تطرف إجرامي أو عدوانى وهى وراء إدمان المخدرات وحالة الهروب والاغتراب وجماعات الهيبيز.

إنه دائما شباب يفتقد الهدف والغاية.

وقد نجح الزعماء العدوانيون العظام أمثال هتلر وستالين وماركس ومن قبلهم زعماء الفرق المتطرفة أمثال الخوارج والقرامطة وجماعة التكفير والهجرة وجماعة القس جونز .. كل هؤلاء نجحوا مع أتباعهم لأنهم قدموا لهم همزة وصل مزيفة وقدموا محرابا بديلا عن المسجد والكنيسة وإيمانا مريضا بديلا عن الإيمان السليم وهدفا يصلح

لامتصاص الطاقة الشبابية وشغل الوقت الضائع

وفى مواجهة هذه الانفجارات التى تحدث فى كل مكان لم تعد تجدى العقاقير المسكنة والعلاجات الجزئية ولم تعد تنفع الجراحات الوقتية .. وإنما أصبح واجبا أن تواجه جميعها بمواجهة أسبابها وعلاجها كلها بإصلاح جذرى .. ولن يتحقق ذلك إلا بأن نقدم للشباب ما ينقصه بالفعل .. همزة الوصل الحقيقية التى تملأ خرابة النفس وتعمر خواءه وتنور باطنه .. وذلك بالدين الحقيقى والإيمان السوى والصلة المثلى بينه وبين ربه

بهذا وحده سوف تهدأ نفسه ويسكن وجدانه وتستعيد فطرته توازنها ويتحول قلبه المريض المنعزل العدوانى إلى قلب محب مشارك مسارع إلى الخير والبذل والعطاء

هناك ضرورة فى العالم كله لأحياء دينى يرفع راية حق بين كل الرايات المضللة الموجودة والاحتياج عالمى لأن النقص عالمى والمرض عالمى والإعراض المنذرة تشهد فى كل مكان على صدق التشخيص ولبلوغ مثل هذا الهدف لابد من إعادة تقديم الدين فى أصوله النقية وبلغة عالمية عصرية تخاطب الكل فى كل مكان وليس بلغة طائفية منغلقة متعصبة.

لابد من تقديم الدين فى روحه وجوهريته وليس فى شكلياته .. الدين كتوحيد وخلف ومسئولية وعمل بالدرجة الأولى الدين كحب ووعى كونى وعلم وتقديس للخير والجمال.

ولم يضر الإسلام شيىء مثلما ضرته الانقسامات والاختلافات حول الشكليات والمظاهرات والفرق فى هذه التفاصيل إلى درجة نسيان لب الموضوع.

- هل يجب أن تغطى الطرحة وجه المرأة أم شعرها فقط ..؟
- هل حلق اللحية وترك السواك كفر ..؟
- هل يكون غسل اليدين فى الوضوء إلى المرافق او شاملا للمرافق؟!!
- هل الاستنجاء بالحصى أفضل أو بالماء ..؟

• هل اقتناء الصور وتعليقها على الجدران حرام ..؟

• هل لبس النيلون للرجال حكمة حكم لبس الحرير حرام ..؟

وعشرات وعشرات من القضايا الجزئية يكفر فيها الواحد الآخر وتضيع روح الإسلام ويضع لبابه بسبب الفرق والتنابذ حول هذه القشور والتفاصيل.

والمطلوب فهم جديد عصرى يطرح هذه الخلافات ويدع تلك القشور وينفذ إلى الروح ليستطيع مخاطبة العقل العصرى المصاب فى صميمه

ولو أننا سنفهم السنة النبوية على أنها لحية فان راسبوتين اكبر فساق عصره وصاحب اكبر لحية سوف يكون أكثر إتباعا للنبى من أبى بكر وعمر .. وماركس بلحيته العظمى سوف يسبق الكل ..

بل السنة فى نظرى هى أتباع الرسول فيما تميز به من خلق وايمان وعقيدة وصفاء نفسى وليس فيما كان يتسوك به أو يكتحل أو يلبس أو يأكل.

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يركب البغلة فلماذا لا يتخذها أصحابنا سنة ويتركون ركوب الطائرات والقطارات ويعودون إلى البغال .. لماذا يتهاونون فى هذه الحكاية ويتعاركون حول الذقن واللحية.

بل هى مسائل شكلية كانت مرتبطة بالعصر فلما تغير العصر تغيرت هى أيضا .. يستوى فى ذلك ركوب البغلة أو استعمال السواك أو إطلاق اللحية .. وهى أمور لا تقدم ولا تؤخر.

إنما الدين هو الأمور الثوابت وليس المتغيرات .

وإنما السنة هى إتباع الرسول فيما تميز به وتفوق على أقرانه.

وحينما اختلف المشركون على حمل الحجر الأسود قبل البعثة وتشاجروا أيهم يحمله ثم ظهر محمد على الطريق .. صاحوا جميعا .. هذا الأمين هذا محمد .. وأخذوا بنصيحته ..

لم يقولوا .. هذا هو الرجل ذو اللحية .. ولم يقولوا .. هذا هو صاحبنا الذى يستاك .. بل قالوا هذا الأمين هذا محمد .. لأن السواك واللحية كانتا أمورا عادية فى ذلك الوقت وكان أبو جهل ملتحيا وكان أبو لهب يستاك بالسواك .. إنما تميز محمد على الكل بالأمانة .. وهنا جماع الأمر .. وهنا روح المسألة .. وهنا الامتياز الذى علينا أن نحاول تقليد الرسول فيه والسير على قدمه .. وهذا معنى السنة فى نظرى .. أما الباقى فأمور لا تقدم ولا تؤخر.

وبهذا الأسلوب ندعو إلى الدين بأن نجلو روحه وجوهرة ونقدمه رسالة عالمية للعالم وليس بأن نختلف ونتعارك فرقا وطوائف على شكليات وأمور ثانوية فان الله قد قال فى كتابه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء:٤٨) وبهذا قطع ربنا بأن فى الدين قضية جوهرية هى روح الأمر وما هيته تلك هى التوحيد وما دون ذلك أمور ثانوية يمكن أن تكون محل مغفرة ..

وفى عالم أرتد إلى جاهلية شرسة وعاد ملحدا كافرا ماديا علينا أن نبدأ معه من البداية من الأبجدية الدينية من القضية الجوهرية وليس من الشكليات والثانويات مثل اللحية والطرحة والسواك.

إن استحضار معنى الله الواحد فى وجدان المواطن أصبح للقضية الأولى العاجلة فالعالم انحدر إلى غفلة مادية وانشغال كامل والله أصبح غائبا عن الوجدان الإنسانى الغارق فى التفاصيل الاستهلاكية واللذات السريعة .. والتليفزيون والسينما والمسرح والراديو والكتاب والمجلة أصبحت أدوات خطيرة تزيد من إغراقنا فى الغفلة والغيبوبة والإغماء الحسى بالأغانى الجنسية وأفلام الجريمة وإعلانات الإثارة ومباريات الدورى والمصارعة الحرة وروايات رعاة البقر .. والنتيجة أن انحدرت النوعية الإنسانية إلى نوعية حيوانية بقرية فأصبحنا نرى الناس يتناطحون أفرادا وجماعات كالجواسيس والأبقار على اللقمة والدرهم وقيراطا الأرض والمرأة وزجاجة النبيذ

إن الدعوة المطلوبة إذن هى دعوة توقظ النفوس على جوهر القضية وروح الأمر .. دعوة تتكلم بلغة العصر وتخاطب الكل دون تعصب ودون تطرف وتحاول أن تمس فى

قلب المواطن ذلك الفراغ والخواء والهمزة المفقودة بينة وبين أصله وتحاول أن تعبده فى رفق إلى أيام وصله بأسلوب سوى لا عدوانية فيه ولا تشنج ولا احتفال فيه بالتفاصيل والأمور الثانوية ..

الدين كما هو وكما أنزلـه الله الـدين الـذى يحـب العلـم والفـن ويـدعو إلى التقـدم والتطور ويشجع التكنولوجيا والإبداع الخصب.

من هنا يمكن أن يبدأ الإصلاح الحقيقى لكل هذه الظواهر الانفجارية وان لم يبـدأ هذا الإصلاح من الآن فان الوقت الضائع سوف يعجل بكوارث ومفاجآت غير محسوبة يمكن أن تفاجئنا هنا أو فى أى مكان من العالم فالنار تسرح فى الفتيل كما قلت وهناك قنبلة دينية وشيكة الانفجار وهم يحرقون دور السينما فى إيران ويقتلون الأطفال والشيوخ باسم الدين وهناك أموال سوفيتيه تنفق لإشعال هذه النار .. إن الكل يدعى انه يقتـل فى سـبيل الله حتى الماركسى الذى لا يؤمن بالله قد رفع لافته مزيفه وأطلق اللحية البخـور وامسك بمسبحة .. وقريبا سوف يختلط الحابل بالنابل فى سوق الدجل ولن تستطيع العين أن تتبين أهل الله من أهل الشيطان

لقد طلعت النذر فى الأفق

وعلينا بالمسارعة إلى العلاج قبل أن تسبقنا الحوادث

***

الحكم الإسلامي .. متى وكيف؟

كان يقول لى :

كلما سمعت القرآن يتلى أمامي أبكى .. أتذكر أثامى فأبكى ثم ما يكاد يمر وقت حتى أرى نفسي أضعف وأعاود الإثم من جديد وكانت تقول:

كثيرا ما كنت أصحو على أذان الفجر فزعة فاقفز من فراشي عارية وأنا ارتجف واشعر بوخز الإبر ولسع العقارب في كل مكان قبلني فيه ذلك الرجل الذي كنت بين ذراعية وأهرول إلى الحمام وأظل تحت الدش ساعات وأنا أحس بأن كل شيء في ملوث.

وهو فنان اختاره الله إلى جواره من زمن وهى فنانة تعودت أن تعيش حياتها بالطول والعرض دون حساب لشيء.

الإحساس الديني لا يبرح الإنسان حتى فى ذروة انحلاله .. وهذا هو الحال دائما فى هذه البلاد التى عرفت الله وبنت له المعابد منذ سبعة آلاف سنة لا تجد فيها كافرا واحدا حقيقيا .. وإنما تجد فيها أهل غفلة وأهل هوى وأهل دنيا.

وعصرنا الذى نعيشه اليوم عصر غفلة.

انشغالات وهموم ومصالح وأطماع وشهوات تأخذ الناس فى دواماتها.

ولكن فى القلب وفى الصميم يظل هناك عطش ولوعة وحزن على شيىء مفقود مضاع، لوعة من ضيع الذهب فى سبيل الورق، وحزن من ضيع حبه الأول الوحيد، وضيع وطنه، وضيع نسبه الشريف، وضيع أصله وحقيقته .. حيث جاء من اشرف نسب .. من الله سبحانه وتعالى.

الله وطنه وربه واصله.

والله حبه الأول الحقيقى والوحيد الذى أضاعه فى الزحام حينما نزل إلى عالم الشتات ومضى يتلفت تتخطفه أضواء الفترينات وتشده الفتن عن ذراعية من ذراعية

وتهوى به أطماعه إلى الحضيض وتكبه الشهوات على وجهه حيوانا يلهث

وأقابل كل يوم من يسألنى :

أيحاسبنا الله نحن أبناء هذا العصر الملعون الملىء بالمغريات كما سوف يحاسب أهل البداوة الأولي أيام قريش فى تلك الأزمنة التى لم تكن فيها سينما ولا تليفزيون ولا راديو ولا مجلات بلاى بوى ولا كاسيت ولا عرايا على البلاجات.

إلا نرى إن الظروف تقتضى أحكاما مظله.

أتظن أنه يمكن ان يقوم حكم إسلامي فى هذه الظروف التى نعيش فيها .. حكم مثل حكم عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز ..

وهل يمكن قيام مثل هذا الحكم دون بتر كامل للعصر كله ودون إرهاب حديدى يستخدم العنف ليستأصل عادات ترسخت فى النفوس وأصبحت مثل التنفس.

ولو جاء حاكم إسلامى عصرى وحاول أخذ الأمور بالتدرج والهوادة والترفق .. هل يرضى عنه أهل الدعوة المتشدقون.. إلا يتهمونه بالترخص والابتداع .. ثم إلا ينطبق الجميع فرقا تتهم بعضها بعضا وتقتل بعضها " وإيران " مثال حى على ذلك.

والتساؤلات كلها عميقة وفى محلها ولا أظن إن التدين يمكن أن يأخذ الشكل القديم بتفاصيله فى عصر تغير تماما.

ومن يريد أن يعيش كابى بكر ليس أمامه سوى أن يغلق بابه عليه أو ينزوى فى مسجد ويقطع صلته بالدنيا حوله تماما .. وهو لن يخرج من خلوته إلا أن يخرج فى حرب يخوضها ثم يعود مهرولا إلى خلوته من جديد.

إن الإسلام بهذه الصورة المثلى ممكن فقط لإفراد نذروا أنفسهم،وهم الصوفية الكمل فى كل العصور أما المجتمع كله فلا يمكن إدخاله فى هذا القالب القديم إلا قهرا، وهو قهر سوف تكون له سلبيات وردود فعل سيئة تضيع ميزاته وحسناته.

يمكن أن تحكم نفسك حكما إسلاميا بهذا الصورة الحرفية على سبيل النذر والتطوع ولكن لا يمكنك أن تحكم المجتمع كله بهذا الأسلوب دون أن نستخدم العنف الدموى القهرى لتخرج الناس من عوائدهم.

والدين لا يمكن غرسه بالإكراه، والفضائل لا تولد عنوة.

إن الصيحة التى يمكن أن يطلقها الدعاة اليوم هى :

أصلح نفسك.

ليصلح كل واحد من نفسه وليحاول أن يروض سلوكه ويحكم دولته الداخلية ويخضع أهواءه وشهواته .. لماذا نجح فليحاول أن يصلح أهله وجيرته فإذا نجح فقد أرقى على الغاية .. وهو الوارث النبوى بحق.

أما أكثر من ذلك فأحلام تسلطية وشهوات حكم وتحكم.

إن تجريد فرق مسلحة لتطهير قلوب الناس لن يثمر إلا الرفض والكراهية لكل ما هو دينى وحينما منع محمد عليه الصلاة والسلام وصحابته مجتمع المدينة كان نبيا مؤيدا بالله وبالروح القدس وبجنود لا حصر لها من الملائكة وكانت الحياة بدائية بسيطة وكان النبى الكريم رجلا لا ينطق عن الهوى وإنما يقول ويفعل بوحى يوحى .. فأين منا من يستطيع ان يفعل هذا

واسمعوا قول الجن فى زمان الرسالة

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (الجن:٨/ ٩).

هؤلاء هم الجن يشهدون بأن الله قد ملأ السماء بالحرس الشديد والشهب وجعلها للشياطين رصدا يحول بينهم وبين التسمع وذلك ليحرس نبيه ورسالته

فأين هذا الحال من حالنا اليوم وقد أطلق الله علينا الشياطين وأرسل الجن من

عقالها واخرج المردة من قماقمها تنوش القلوب والعقول.

إن الحكم الإسلامي لا يستطيع أن يأتى به إلا نبى مؤيد بالله والملائكة والمعجزات أو رجل طاهر على قدم النبوة.

إن تغيير القلوب عمل الهى وليس عملا بشريا والله يقول لرسوله الكامل.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ (الأنفال:٦٣).

إن الوحدة وتأليف القلوب عمل فريد لا يقدر عليه الفكر .. بل ولا الذين دون مشيئة وتيسير وتمكين الهى.

ولا وصول للحكم الإسلامي إلا على مراحل مرحلة أولى من التوعية والدعوة ونشر القدوة ثم تظهر طلائع من أهل التقوى والورع ثم يظهر رجل طاهر على قدم النبوة يجمع الناس حوله بالمحبة ثم بتيسير الله يتحرك المجتمع كله وراءه اختيارا ودون إكراه .. ودون قتل .. ودون قهر حينذاك وليس قبل ان يكون الحديث عن حكم إسلامي.

أما هذه الدعوات الفجة المصحوبة بالتشنجات الهاتفة بحكم إسلامى يأتى غدا أو بعد غد دون هذه التهيئة الإلهية .. فحكمها حكم الانقلابات التى تأتى فتغير الجالسين على الكراسى وتغير المنتفعين دون أن تغير قلبا واحدا أو تنور ضميرا واحدا.

وحسب العاقل الذى يريد إصلاحا أن يبدأ بإصلاح نفسه أولا .. ويشرع بتطهير دولته ويطبق القانون الإلهي فى سلوكه .. فذلك هو أول الغيث ثم بعد تجمع القطرات يأتى المطر.

أما إن نصطنع المطر بالشعارات والهتافات دون أن تتكلف القطرات .. ونصطنع القطرات بالا قوال دون تهيئة سابقة لظروف الرطوبة والبرودة ثم أن نتصور إن قطرة يمكن أن تنمو دون نواة ودون بذرة فذلك مثل توقع الحمل دون لقاح أو تصور جنين يكتمل فى يوم بمجرد الهتاف والحماس.

نحن نعيش فى عصر مادى جاهلى مبتعد بمؤسساته وتنظيماته وعاداته عن الروحانيات والمنهج الروحى ولا يمكن أن ينقلب هذا العصر فى أربع وعشرين ساعة إلى عصر إسلامي بمجرد إطلاق النداءات.

ولو إن كلا منا انفق الوقت فى إصلاح نفسه ومجاهدة عيوبه لكسبنا أعمارنا ولصنعنا شيئا أفضل من النداء على ثمرة قبل أوانها.

يقول الله لعيسى فى حديث قدسى:

" يا عيسى عظ نفسك فان اتعظت فعظ الآخرين ولا فاستح منى ".

اللهم إنى اشعر بالحياة منك.

لا تشادوا الناس يا قوم ولا تشادوا أنفسكم فان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق وتدرج وهوادة وخذوا بالممكن أولا قبل محاولة فرض أولا قبل محاولة فرض الأمثل بالقوة فان المتعنت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

إن الفقهاء الأفاضل الذين يفتون كل يوم بأن السينما حرام والموسيقى حرام والتليفزيون حرام والغناء حرام والبنوك حرام يجعلون حياتنا كلها كفرا صريحا فلا يبقى لنا إلا أن نهاجر إلى قمم الجبال إن كان عندنا إيمان .. وذلك هو نفس مبدأ شباب التكفير والهجرة وهو نفس مبدأ القس المسيحى جيم جونز الذى هاجر مع أتباعه إلى أطراف الغابة وأقام مستعمرة ثم حكم فى النهاية بالموت والقتل على نفسه وعلى أتباعه فتجرعوا جميعا السم أطفالا وشبابا وشيوخا وماتوا بسلامته الإنجيل .. "من اهلك نفسه من اجلى وجدها".

وذلك هو حب الله الذى انتهى إلى اليأس من رحمته والى الانتحار وهو قمة الكفر.

ونبذ الله المغالاة والتزمت والتعنت والتطرف الذى يقلب الشيء إلى ضده.

ولو نظر كل واحد منا إلى راتبه الذى يقبضه من الدولة لوجد إن ماله يدخل فيه الحرم من إيرادات السياحة وجمارك الخمور وصالات القمار بما فى ذلك الشيوخ الأفاضل

أنفسهم وعلماء الأزهر ووزير الأوقاف وأهل الفتاوى الذين يفتون بالحل والحرمة.

إن العصر قد ابتعد عن الدين بالكلية.

والعالم يعيش جاهلية علمية مادية رغم الشعارات والمصاحف والأناجيل المطلقة في الصدور هناك فساد في العالم كله ولن ليس معنى هذا أن يكون الإصلاح بالرفض الكامل والدم والإرهاب والقهر والجبر فذلك أسلوب يقلب النتائج إلى عكسها.

وقديما نزلت أحكام تحريم الخمر في القرآن بالهوادة والتدرج ولم ينزل تحريمها بغتة.

والله يعلمنا بهذا الأسلوب التشريعى التدريجى إن إصلاح الفساد المتمكن المترسخ لا يمكن أن يتم إلا بالهوادة والتدرج .. ولا يمكن أن يأتى إلا على مرحل مرحلة بعد مرحلة ...

وأنا أرى إن المرحلة الممكنة الآن هى أصلح نفسك ثم أصلح اهلك ثم أصلح جيرانك.

فمن تم هذه المراحل فى هذا الزمان فهو نبى عصره وهو بذلك يضع الأساس المتين لمن يبعثهم الله فيها بعد أطهارًا إبرارًا مؤيدين بروحه وملائكته لا حياء الإسلام على مستوى الأمة والعالم .. وذلك إن شاء ومى شاء ..

ونسمع من البعض من يقول إن هذا اليوم قد اقترب وان البعث الدينى قادم.

من كان يصدق إن رجلا منفيا مطرودا اعزل فى الثمانين من العمر مثل أية الله الخمينى ينتصر وحده على إمبراطور وجيش جرار كامل العداد والعدة.

إن لم تكن تلك علامة على صدق الرجل فهى علامة على صدق الشوق فى قلوب الملايين التى تتلهف على بعث دينى.

نعم ربما كنا نقترب من هذا الزمان إن الشوق إلى الطهر والنقاء فى قلوب الناس حقيقة لا شك فيها.

ولكن ما زال بين الشوق والهمة المطلوبة للتغيير مسافة كبيرة.

ولم يظهر بعد ذلك الرجل الكامل على قدم النبوة الذى يسير خلف النبى حذو النعل بالنعل.

ذلك الرجل المؤيد من ربه الذى يسير خلفه الملايين حبا وطواعية واختيارا وتسليما.

ولكننا نملك التمهيد وإصلاح الطريق أمام هذا القادم وذلك بزرع الشوق فى النفوس وتنوير القلوب وتثقيف العقول والدعوة إلى الله بنفس الأدوات التى يريد المتطاولون تحريمها بالسينما والمسرح والتليفزيون والأغنية والكتاب.

والفن بوق عظيم ينفخ فيه الهدامون والمفسدون ويدعون فيه إلى مبادئهم .. فلما لا نأخذه منهم وندعو فيه إلى مبادئنا بدل محاولة تحطيمه وتحريمه.

***

كلمة التوحيد .. ماذا تعنى

أكثر الذين عبدوا الله وزعموا أنهم يعبدونه واحدا جعلوا له شركاء أكثرهم فعلوا هذا من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون .. أخناتون الذي بلغ القمة فى التوحيد عاد فجعل من نفسه ابنا لهذا الإله فقال فى نشيده مخاطبا ربه إنك فى قلبى وليس هناك من يعرفك غير ابنك الذي ولد من صلبك ملك مصر العليا والسفلى الذى يحيا فى الحق سيد الأرضيين اخناتون.

لقد وقع برغم بصيرته الشفافة فى هذا الإفك القديم وظن نفسه أبنا لله من صلبه وفى فارس تصوره الذين عبدوه الهين اثنين .. (هرمز وأهرمن): " أحدهما الها للخير والآخر للشر وفى الهند تصوروه ثالثا " برأهما وفشنو وشيفا " ومن تحت الثالوث عددوا كثرة من صغار الأرباب وصلت إلى ثلاثمائة وثلاثين مليونا من الآلهة بعدد ما ظنوا من حيوانات ودواب ومخلوقات تحل فيها أرواح تلك الآلهة.

وفى اليونان عبدوا زيوس كبير الأرباب ثم جعلوا لهذا الكبير عصابة من صغار الآلهة بعدد ما تصوروا من قوى الطبيعة.

وعبد اليهود الرب " يهودا " إلها واحدا ثم جعلوا من النبى عزرا ابنا له مخالفين بذلك ما علمهم موسى من وحدانية الخالق.

وجاء عيسى بالتوحيد فاختلف من بعده الأتباع.

ثم جاء الإسلام بختام الكلمة فى التوحيد فالله أحد صمد لا صاحبة له ولا ولد ليس له ند ولا ضد ولا مثيل ولا شبيه لا يتحيز فى مكان ولا يتزمن بزمان ولا يتحدد فى كم يتمثل فى مقدار ولا يتقيد بإطار ولا تحيط به صوره ولا يتجسد فى جسد وهو ليس من هذا العالم بل هو فوقه ومتعال عليه فهو فى الإطلاق وهذا العالم فى التقيد .. وفى كلمة بسيطة بليغة .. أحد .. أحد .. ليس كمثله شيء ..

واعتقد المسلمون بهذا التوحيد بواقع الشهادة التى يقررونها خمس مرات كل يوم

وفى كل آذان أنه لا اله إلا الله .. وأن الله أكبر من كل شيء مطلقا .. ولكن الكثرة الغالبة منهم عادت فوقعت فى ألوان جديدة من الشرك الخفى وبات أكثر توحيد المسلمين باللسان بأن الله اكبر .. أكبر بينما سلوك هذه الكثرة ومشاعرها يقول أن الدنيا أكبر وتحصيل المال أكبر وحيازة القصور والضياع أكبر والفوز برضا المرأة اكبر والتقرب للسلطة أكبر وهوى النفس أكبر.

الكثرة تقول لا تعبد إلا الله ولا نخاف إلا الله ولكن سلوكها يقول أنها تخاف الموت والفقر والمرض .. والميكروب والفيروس والشيخوخة أكثر ، وكأنما هذه الأشياء لها سلطة الضرر بذواتها.

الكثرة تطلب الشفاء من يد الطبيب وتلتمسه فى الدواء ويقع الواحد فى اليأس لأنه لم يجد الحقن المستوردة كذا أو المضاد الحيوي كذا وينسى أن الله من وراء الأسباب وأنه هو الذي أودع صفات الشفاء فى هذا المضاد أو هذه الحقنة وأنه هو الذى قدر البرء على يد هذا الجراح .. وأنه هو الذى خلق الفيروس والميكروب والبكتيريا وأنه هو الذى نشرها وأرسلها وأنه هو الذي أقام حواجز المناعة فى أجسامنا وأنه إن شاء هدم هذه المناعة وان شاء أعانها وانه خالق الحر والبرد والصقيع وانه هو الذي وضع خاصية التغذية فى الغذاء وخاصية الإرواء في الماء وخاصية القتل فى السم وخاصية النفع فى الترياق

لا شيء له سلطة النفع بذاته ولا شيىء له سلطة النفع بذاته ولا شيء له سلطة الضرر بذاته

وإنما الله هو الضار النافع وما عدا ذلك أسباب أقامها الله لتعمل بمشيئته والتوحيد الصحيح أن نخافه هو لأنه لا شيء يستطيع أن يضرنا بدون مشيئته وان نطمع فيه وحده لأنه لا شيء يستطيع أن ينفعنا بدون أذنه انه وحده الذى يعمل طوال الوقت بالرغم من كثرة الأيدى التى تبدو فى الصورة ألم يقل للمقاتلين فى بدر.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال:١٧).

مع أن الظاهر أنهم هم الذين قتلوا المشركين .. وأن النبى عليه الصلاة والسلام هو الذى رمى، هذا هو الظاهر.

ولكن الحقيقة أنها أدوار اختار الله أبطالها منذ الأزل .. اختار للشر نفوسا علم أنها تحب الشر وعرف أنها لا تصلح إلا للشر بحكم ما أخفته فى سرها .. ولهذا اختار إبليس للغواية .. لأنه علم فيه الكبر .. واختار محمدا عليه الصلاة والسلام للهداية لما علم فيه من مودة ورحمة .. وهكذا وزع الأدوار بحكم استحقاقات علمها أزلا .. ثم أعلن كل واحد على ما يصلح له .. أعن المضل على الضلال وأعان الهادى على الهدى.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء:٢٠).

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الليل:٥/ ١٠).

من طلب المعونة على جريمة أعانه عليها وعليه وزر اختياره ومن طلب المعونة على خير أعانه عليه وله ثواب اختياره أنما دور كل منا هو توجيه طاقته.

ولكن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الطاقة الكلية ولا يمكن انفاذ فعل بدونه فهو الوكيل القائم على إنفاذ جميع الأفعال وهو اليد الفاعلة وإنما دور القاتل انه أضمر القتل واختاره وفكر فيه وعزم عليه وهذا هو إسهامه الذى سيحاسب عليه .. أما إنفاذ جميع الأفعال فالله منفرد به .. ولهذا قال لمحاربى بدر : "﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ ﴾ (الأنفال:١٧) وهذا هو المعنى الحقيقى للتوحيد أن الله هو الفاعل الوحيد .. وانه إذا كانت لنا أعمال فهى سرائرنا ونياتنا وما نعزم عليه وما نوجه إليه طاقاتنا وما نبادر إليه .. ولهذا قال الله عن نفسه انه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ،

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الرعد:٣٣).

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (النساء:١٤٣).

ولكنه شاء سبحانه وتعالى أن يطمئنا فقال :

﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:٢٧).

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (غافر:٣٤).

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (غافر:٧٤).

فجعل الفعل الإلهى قائما على استحقاق وهذا يجعل من الدنيا كلها تحصيل حاصـ لاستحقاقات أزلية استحقتها نفوس الخلائق بحكم منازلها التى تفاضلت بها أزلا .. وإ أراد الله أن نخرج ما نكتم فى قلوبنا فخلق هذه الدنيا ليشهد كل منا على نفسه : ﴿ وَٱللَّ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة:٧٢). ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:٦٤).

وهذا يعنى إن هذه الدنيا هى الفصل الثانى من رواية وأنه كان هناك فصل أول سابق عشناه ولا نذكر عنه شيئا .. وأننا بحكم ما قدمنا فى هذا الفصل السالف استحقق ما نجد من خير وشر .. وأن ما يجد كل منا فى حياته هو اشبه بكشف النقاب عما يكتم وع يخفى فى ذات نفسه.

والله يعلم حقيقتنا من القدم ويعلم عنا كل شيء ولكنه أراد لنا أن نعلم عن أنفسن بعض ما يعلم فخلق لنا الدنيا لنرى أنفسنا فى أعمالنا.

وليس هذا قولا بتناسخ فانا لا أومن بالتناسخ الذى يتكلم عنه الهنود ولا فى تقمص الأرواح الذى يعتقد فيه الدروز .. ولا أظن أن الفصل الأول من الرواية كان على هذه الأرض ولا أنه كان تقمصا سابقا لحياة بشرية .. إنما هو أمر من أمور الغيب لا يعلمه إلا الله وهو ماض محجوب لن يهتك عنه الستر إلا يوم يبعث الله من فى القبور ويحصل ما فى الصدور.

يومئذ تنكشف الأسرار ويعرف المجرمون أنفسهم على حقيقتها فيقولون معترفين ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (غافر:١١).

ولا خروج .. فهل يستطيع أن يخرج إنسان من نفسه أو يتبرأ إنسان من يديه.

" هيهات "

ويسال سائل .. لمن الملك اليوم وتجيب السماوات والأرض وتجيب الملائكة وكل الخلق .. لله الواحد القهار وهو أمر ليس بجديد .. فالملك كان لله دائما فى ذلك اليوم وفى كل يوم .. ولكن الظاهر فى الدنيا كان يخدع من يراه .. كان يبدو أن لبعض الناس ملكا وكان يبدوا إن الطبيب يشفى وان السلطان يرزق وان السم يميت وان الرصاصة تقتل وان هذا ينفع وان ذاك يضر وأن هناك جبارين غير الله يحكمون

ونسينا ما وصف الله به نفسه فى القرآن الكريم بأنه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ (الحديد:٣).

فان كان الطبيب يشفى والسلطان يرزق والسم يميت والرصاصة تقتل فان الله هو الظاهر فى كل هذه المظاهر وهو الفعل الخالص فيها وما يجرى على جميع الأيدى هو الوجه المنظور للمشيئة فى تلك اللحظة .. سبحانه .. كل يوم هو فى شأن .. وتلك شئونه ..

وإذا كنا رأينا جبارين من غير الله يحكمون فما حكموا فى الحقيقة إلا به . وإنما تجلى حكم الاسم الجبار على نفوسهم لأن تلك النفوس لم تكون لتقبل بحكم استعدادنا الأزلى إلا هذا اللون من التجلى .. لم تكن تصلح لأن يتجلى عليها الرحيم ولا الودود ولا الرؤوف .. ولم تكن لتقبل التجليات الجمالية للسماء الحليم والكريم والحنان والمنان واللطيف ..

فنحن ما زلنا مع الله لم يظهر فينا غيره .. هو الظاهر بأسمائه وأفعاله فى كل شيء .. ولكن من وراء ستار الأسباب ومن خلف نقاب الكثرة.

وبرغم هذه الكثرة فانه لا اله إلا الله .. لا فعال سواه ولا شاف ولا رازق ولا نافع ولا شار ولا محيى ولا مميت ولا جبار ولا مهيمن غيره .. أنها ذاته الواحدة الفاعلة أبدا وأزلا.

إلا تبدو الطاقة الكهربائية فى كل مصباح بشكل مختلف حسب نوع الفتيل المعدنى داخله.

إلا تبدو الكهرباء فى مصابيح النيون بألوان وتالفات متفاوتة حسب نوع الغازات فى تلك الأنابيب المفرغة.

ما أشبهها جميعا بنفوسنا التى تختلف استعداداتها فتختلف أفعالها مع إن الفاعل فيها واحد .. مجرد مثال.

والدنيا كلها مثال رامز للقدرة .. قدرة الواحد الأحد الذى ليس كمثله شيء وإذا رأيت هذا الواحد من وراء الكثرة وإذا أنت لم تعبأ بهذه الكثرة وشعرت بنفسك تتعامل طول الوقت وجها لوجه مع الله فلم تر شافيا لك غيره رغم تعاطيك الدواء واستسلامك لبضع الجراح وإذا رايته هو الذى يطعمك ويسقيك وشعرت بنفسك تأكل من يده وتشرب من يده رغم كثرة المشارب والمطاعم التى تتردد عليها وإذا نسيت نفسك ولم تر غيره فأنت المسلم الموحد على وجه التحقيق

وإنما يأتى فساد الإعمال من تصور الواحد منا انه يأتيها وحده .. كما تصور قارون انه صاحب العلم وصاحب العمل وصاحب الفضل وقال مختالا وهو يتحدث عن ماله وجاهه ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص:٨٧).

فلم ير غير نفسه ولم يشهد غير علمه الذاتى ونسى انه لا يملك علما ذاتيا ولا قدرة ذاتيه وإنما قدرته وعلمه وذكاؤه كانت كلها هبات سيده وهذا هو الشرك الخفى .. حينما يصبح اله الواحد نفسه وهواه وملكاته.

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ (الجاثية:٢٣).

ولهذا يتبرأ العارفون عن أعمالهم الصالحة ويسندونها إلى الله وتوفيقه.

وأكثر من هذا يتبرأ الواحد من إرادته الخيرة ومن نياته الطيبة ويرى أنها من أفضال سيده .. ثم يتبرأ من نفسه التي بين جنبيه .. وينسى ذاته .. ويشهد انه لا يملك من نفسه

العدم وان كل ماله من الله .. ولا يعود يختار .. وإنما يشهد الله أن يختار له فى كل لحظة ثم لا يعود يشهد إلا الله في كل شيء .. فذلك هو التوحيد الكامل .. وهذه هي لا اله إلا ، حينما تصبح حياة.

ونرى دعاء الحسن الشاذلي في هذه الحالة من الوجد : رب خذني إليك منى ارزقني الفناء عنى ولا تجعلني مفتونا بنفسي محجوبا بحسي .. ونقرأ فى المواقف المخاطبات لنفرى ما يقوله الله لعبده العارف " ألق الاختيار ألق المساءلة البته" فثواب ثل هذا التوحيد الكامل الذى يلقى فيه العبد اختياره ويأخذ باختيار الله فى كل شيء .. و المغفرة الكاملة وعدم المحاسبة يقول الله فى حديثه القدسي إلى المذنب لو جئتنى بملء راب الأرض خطايا ولقيتنى لا تشرك بى شيئا لوجدت عندى ملء تراب الأرض مغفرة.

فتلك ثمرة التوحيد .. وهذا ثواب كلمة لا اله إلا الله إذا جعلها الواحد منا حياته وسلوكه ومنهجه ونبضه وتنفسه وذوب قلبه وهذا ما أراده القرآن الكريم بإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى وهذا ما أراده رسولنا العظيم محمد عليه الصلاة والسلام حينما سأله أحدهم أن يوجز له الدين الذى تلقاه عن ربه فى كلمتين فقال كلمته الجامعة: " قل لا اله إلا الله ثم استقم".

وهذه هي الملة الحنيفية ملة أبينا إبراهيم الذي لم يعرف لنفسه إلها ولا خالقا ولا رازقا ولا شافيا ولا منفذا إلا الله .. والذي القي به في النار وظهر له جبريل يسأله حاجته .. فقال له النبي العارف الموحد. أما لك فلا ..

انه فى ساعة الخوف والهول والفزع لا يسأل أحد إلا ربه .. لأنه لا يرى أحدا يملك له شيئا حتى ولو كان كبير الملائكة الروح القدس نفسه .. فلا فاعل في الكون إلا الله .. ولا يملك أحد أن ينفع أو يضر إلا بإذنه.

وتلك مرتبة عرفانية لا يصل إليها إلا نبي.

وهذا معنى التوحيد.

الفهــرس

***